محكم

هرمينيوطيقا النص القرآني في منظور اليسار الإسلامي

(حسن حنفي أنموذجاً)

الشريف طوطاو

باحث جزائري

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

جميع الحقوق محفوظة © 2015

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved © 2015

Mominoun Without Borders

الملخص:

اليسار الإسلامي اتجاه فكري إصلاحي ظهر في الساحة الفكرية العربية والإسلامية في النصف الثاني من القرن العشرين، يريد أن يجعل من الدين الإسلامي قوة للدفاع عن المستضعفين في الأرض ضد أنظمة الاستبداد والظلم والفساد، في مقابل ما اصطلح عليه باليمين الإسلامي، وهو ذلك الاتجاه الذي يجعل من الدين سلطة للدفاع عن مصالح أنظمة القهر والاستبداد والسيطرة وذلك بتبرير ممارساتها وربما بالتواطؤ معها. ومن اللافت للانتباه أنّ كلا الاتجاهين (اليسار واليمين) يتخذ من النص الديني مرجعية له، ومعتمدهما في ذلك على الهرمنيوطيقا بما هي نظرية ومنهج في تأويل النصوص وفهمها وتفسيرها.

وهذه الدراسة تسلط الضوء على هرمنيوطيقا النص القرآني عند واحد من أعلام ومنظري اليسار الإسلامي، وهو حسن حنفي. ورغم أنّ المصطلح (هيرمينيوطيقا) ظهر في الفكر الغربي، إلا أنّ حنفي قد عمل على تأثيله، وذلك بتقريبه من المجال التداولي العربي الإسلامي من خلال تطبيقه على النص القرآني، هادفاً إلى إبراز علاقة هذا النص بالواقع، ومن ثمة، إظهار البعد الاجتماعي والإنساني للدين الإسلامي.

وقد شكل هذا المجهود الفكري في تأويل النص ما اصطلح عليه بـ "نظرية التفسير"، وهي الجبهة الثالثة من مشروعه الفكري "التراث والتجديد". ومن هنا كانت الإشكالية المحورية لهذه الدراسة تتمحور حول التساؤل التالي: ماهي معالم نظرية التفسير التي بني عليها اليسار الإسلامي عند حسن حنفي؟ وتتفرع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات أهمها:

- ما المنطلقات الفكرية لليسار الإسلامي عامة، وعند "حسن حنفي" بصورة خاصة؟
- ما المنهج الذي يتوسل به "حنفي" في تأويل النص القرآني؟
- ماهي قواعد وخصائص هذا المنهج التي تميزه عن مناهج التفسير الأخرى؟
- كيف طبق حنفي هذا المنهج في ربط النص بالواقع؟

ـ وأخيراً، هل كان استثمار اليسار الإسلامي (حنفي) في الهرمنيوطيقا موفقاً، بحيث استطاع أن يقدم لنا نظرية ومنهجاً جديداً في التفسير بما يمكن عدّه تجديداً واجتهاداً في علم التفسير الإسلامي؟ أم أنه يمثل مظهراً من مظاهر التغريب في الفكر الإسلامي المعاصر؟

ذلك ما تحاول هذه الدراسة الإجابة عنه من خلال جملة من المطالب التي أملتها إشكالية البحث بالاعتماد على منهجية مركبة تقوم على التحليل والتركيب والمقارنة والنقد، وذلك بحسب مقتضيات البحث وأهدافه.

مقدمة:

يُعدّ "حسن حنفي" واحداً من المفكرين العرب والمسلمين المعاصرين، وهو صاحب مشروع فكري إصلاحي كبير، يقوم على الجمع بين التراث والتجديد، بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث والحداثة، ويتكون هذا المشروع من ثلاث جبهات أساسية: الجبهة الأولى تتمثل في موقفه من التراث، فقد دعا إلى تجديد التراث، من خلال إعادة بناء علوم التراث، والجبهة الثانية، تتمثل في موقفه من الغرب (الآخر) والذي ضمنه ما اصطلح عليه بعلم الاستغراب، حيث سعى من خلاله إلى تجديد علاقة الأنا بالآخر وذلك عن طريق دراسة الآخر وفهمه، كما حاول هو فهمنا من خلال الاستشراق، وهكذا يتحول الغرب إلى موضوع للدراسة بعد أن كان هو الدارس ونحن الموضوع في علم الاستشراق، وأما الجبهة الثالثة فتتمثل في موقفه من الواقع، وهو ما ضمنه نظريته في التفسير التي حاول من خلالها إعادة بناء النص وتفسيره في ضوء معطيات الواقع.

إنّ هذه الجبهة الأخيرة هي التي تعنينا هاهنا، حيث يقدم "حنفي" نظريته في التفسير، والتي أبان من خلالها عن اتجاه جديد في فهم النص وتفسيره، وهو ما اصطلح عليه باليسار الإسلامي، فما هي يا ترى المنطلقات الفكرية لليسار الإسلامي؟ وماهي نظريته في التفسير؟ وما منهجه في التعامل مع النص؟ وما الذي يميزه عن التفاسير الدينية الأخرى؟

أولاً: المنطلقات الفكرية لليسار الإسلامي

اليسار الإسلامي أو لاهوت التحرير هو المصطلح الذي يطلقه "حسن حنفي" على مشروعه الفكري وعلى نظريته في التفسير[1]، وهو اتجاه فكري إصلاحي ديني ذو طابع اجتماعي وسياسي. وهو بذلك يتقاطع مع الاتجاهات اللاهوتية والإصلاحية في كونه ينطلق من الدين، من العقيدة، ومن الإيمان، ومن قراءة النص (الوحي)، غير أنه من جهة أخرى يختلف عن هذه الاتجاهات التي تمثل ما يصطلح عليه باليمين الإسلامي أو لاهوت السيطرة أو الإسلام الرسمي والتقليدي في كونه يحاول تفسير الدين تفسيراً عقلياً في ضوء معطيات الواقع، فهاهنا تتحول بؤرة الاهتمام من الله إلى الإنسان، ومن الإيمان القلبي والتأمل النظري إلى الفعل السياسي والاجتماعي، ومن النص إلى الواقع، ومن علم النص إلى العمل بالنص، ومن الأنطولوجيا إلى الأنثروبولوجيا، ومن العقيدة والإيمان إلى الإيديولوجيا، فهو إذن (اليسار الإسلامي) محاولة فكرية لأنسنة الدين وتثويره، أي لإنزال الدين من السماء إلى الأرض، من الميتافيزيقا إلى التاريخ والواقع، وتحويل الدين من الإيمان القلبي إلى

[1]- حول لاهوت التحرير، ومفهومه ونشأته واتجاهاته ومقولاته وفلسفته، ينظر دراستنا: لاهوت التحرير في الفكر العربي المعاصر (حسن حنفي أنموذجاً)، مجلة دراسات فلسفية، تصدر عن الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، العدد 01، ص ص 41 - 73

الفعل والممارسة، فهو بمثابة إيديولوجيا نضالية ثورية تتخذ من تفسير (تأويل) الدين (النص) مرجعية لها في تغيير الواقع وإصلاح المجتمع وفي مقاومة مختلف أشكال القهر والاستعباد والظلم والفقر والتخلف[2]. فاليسار الإسلامي، أو لاهوت التحرير كما يقول "حسن حنفي" قد نشأ "كإيديولوجية ثورية تحررية شعبية للجماهير، تربط بين الدين والثورة، والإيمان والعدالة، والله والشعب، والعقائد والمطالب الاجتماعية، والوحي من ناحية، والحرية والإخاء والمساواة من ناحية أخرى"[3]. وهذا يعني أنّ هذا الاتجاه يتخذ من الدين وسيلة، ومن التحرير غاية له، والتحرير المقصود هاهنا ليس التحرير بمعناه السياسي فقط، بل معناه الثورة على كل أشكال الظلم والاغتراب والقهر والتخلف والتبعية والاستبداد والاستعمار (السياسي والثقافي والاقتصادي،... إلخ)، وكل ما من شأنه أن يسلب الإنسان إنسانيته وكرامته ويحط من قيمته التي أرادها الله له "وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً" [الإسراء:70]. وبذلك يمكن القول إنّ الفلسفة التي يرتكز عليها هذا اللاهوت هي فلسفة فعل وثورة تروم الإصلاح والتغيير والتحرير الإنساني الشامل باسم الدين، أي باسم الوحي الذي يمثل إرادة الله، والتي هي في الوقت ذاته إرادة الإنسان المقهور، فالوحي، كما يقول "حسن حنفي"، يمثل صرخة هذا الإنسان المقهور[4]. وهو ما دلت عليه الآية الكريمة التي اتخذها اليسار الإسلامي شعاراً له وهي قوله تعالى: "وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُم الْوَارِثِينَ" [القصص:05]. ومن هنا يتجلى البعد الإنساني لهذا الاتجاه، فهو يجعل كرامة الإنسان وعزته وسعادته غاية له، ومن ثمة فهو يرى أنّ أهمية الدين تكمن هاهنا، فلولا هذا البعد الإنساني لفقد الدين أهميته ومبررات وجوده.

واليسار الإسلامي ينحو منحى لاهوت التحرير المسيحي، ومن أبرز أعلامه "الأب كاميليو توريز" الذي أعجب به "حنفي" كثيراً. فقد حاول "توريز"، كما يقول حنفي، تفسير الدين المسيحي تفسيراً ثورياً وإعادة بناء عقائده ونظمه ومؤسساته، ولا يعني ذلك تأسيس ثورة على أساس خلقي، فالثورة لا تقوم إلا على تحليل اجتماعي للواقع، والتعرف على البناء الاجتماعي الطبقي، ومن أجل إقناع الآخرين بالمضمون الثوري للفضائل المسيحية كفضيلتي الإحسان والمحبة يستعمل "توريز" منهج النص المباشر، فيذكر بعض النصوص التي تحث على الثورة مثل: "لو قال أحد إنه يحب الله الذي لا يراه ولا يحب جاره فهو كاذب"، أو قول المسيح: "لقد كنت جائعاً ولم تعطني ما أطعم به، وكنت ظمآن ولم تعطني ما أروي به ظمئي"[5]. وبهذا، فإنّ المسيحية، كما يقول

[2]- حسن حنفي، هموم الفكر والوطن، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص 236

[3]- حسن حنفي، لاهوت التحرير بين علم العقائد والتغيير الاجتماعي، ضمن: وليم سيدهم اليسوعي، لاهوت التحرير..، مرجع سابق، ص 66

[4]- حسن حنفي، حصار الزمن، الحاضر مفكرون، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1، 2004، ص 165

[5]- حسن حنفي، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1987، ص 322

حنفي (متابعاً توريز) تحمل بعداً ثورياً، وهو ما يجعلها تلتقي مع الماركسية على الأقل في الهدف، "فلا خلاف ـ كما يقول ـ بين الماركسية والمسيحية، فكلاهما ثورة، بصرف النظر عن الأساس الفكري لكل منهما، فالثورة هي برنامج عمل لتغيير البناء الاجتماعي، والمسيحية والماركسية كلاهما برنامج عمل ثوري وكلاهما تغيير للبناء الاجتماعي الطبقي، لا يهم بعد ذلك إن كانت المسيحية تقوم بهذه الثورة بناء على أمر إلهي، أو أنّ الماركسية تقوم بها بناء على إيديولوجية سابقة"[6].

يحاول اليسار الإسلامي إذن أن يقتفي أثر لاهوت التحرير المسيحي، ولا يعد ذلك تقليداً له، في نظر حسن حنفي، لأنّ نواة هذا اللاهوت كامنة في الإسلام، فالقرآن الكريم فضلاً عن السنّة النبوية يزخران بالنصوص التي تؤكد على قيم العدالة والحرية والمساواة والكرامة وغيرها من القيم الإنسانية التي انبرى لاهوت التحرير الإسلامي للدفاع عنها والنضال من أجل تحقيقها، وهو ما يؤكده حنفي في قوله: "أنطلق من الإسلام باعتباره دعوة من أجل الحق والخير والعدالة والمساواة، وفي الطريق سألتقي بمن يهدفون إلى الغايات نفسها فأعتبرهم رفاق نضال، ومن بين هؤلاء ماركس الذي نجله ونحترمه، لأنه ساهم في الكشف عن عدة حقائق هامة، ولكنه لن يتحول عندي إلى بديل عن ابن خلدون".[7]

ويطلق حسن حنفي على اليسار الإسلامي عدة أسماء تمييزاً له عما يسميه بـ"اليمين الإسلامي" أو "الإسلام الرسمي" أو "لاهوت السيطرة"، ومن هذه الأسماء "الإسلام التقدمي" والإسلام المستنير و"لاهوت الأرض" و"لاهوت التنمية"، وغيرها من الأسماء، وكلها مسميات أو اصطلاحات تجد تبريرها من داخل الإسلام لا من خارجه، يقول في ذلك: "إنّ ما يُسمى بالإسلام التقدمي أو الإسلام لصالح الجماهير أو إسلام الغالبية الصامتة... جاء لينذر الحكام والطغاة ويقوي الحركة الشعبية ويقودها، والدين بطبيعته يغير أمر الواقع الذي يسود فيه الغني على الفقير والحاكم على المحكوم، وكل الثورات التي قامت في الإسلام قامت على هذا الأساس."

ومن هذا المنطلق، عمل "حنفي" من خلال الجبهة الأولى في مشروعه الفكري "التراث والتجديد" على إعادة بناء علوم التراث[8] وعلى رأسها علم أصول الدين الذي خصص له كتابه "من العقيدة إلى الثورة"، فهذا العلم كما يقول: "يمكن بواسطته سد النقص النظري في واقعنا المعاصر، والذي يمكنه أن يمدنا بإيديولوجية

---

[6]ـ المصدر نفسه، ص 323

[7]ـ محمد وقيع الله: حسن حنفي وأطروحات اليسار الإسلامي: http:// www.waqialla @yahoo. com 1234 2010/02/9

[8]ـ يتضمن مشروع التراث والتجديد ثلاث جبهات، الجبهة الأول: موقفه من التراث القديم، والثانية، موقفه من الفكر الغربي، وأما الجبهة الثالثة، فيتناول نظريته في التفسير (علاقة النظرية بالواقع)، انظر: حنفي، التراث والتجديد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1987، ص 149 وما بعدها.

عصرية، تشتمل على لاهوت الثورة، ولاهوت الأرض، ولاهوت التحرير، ولاهوت التنمية، ولاهوت التقدم"[9]، كما عمل في الجبهة الثالثة منه (نظرية التفسير) على إعادة تفسير أو تأويل النص (الوحي)، فالغاية من هذه النظرية، كما يقول، "تحويل الوحي إلى علم إنساني شامل" بغية تخليص الحضارة الإسلامية من ركودها[10].

إنّ "حسن حنفي" يقطع مع النظرية السلفية في فهم النص، فهو لا يراه وحياً عن الله بل عن الإنسان الباحث عن الحقيقة الإلهية عبر تجربته وصراعه. فالوحي ليس نازلاً من الله إلى الإنسان بل هو صاعد من الإنسان إلى الله لتلبية نداء الواقع وللتعبير عن مصطلح الأمّة أو الجماهير. لكنه في مجال تحديد وظيفة المفسر يتبنى خطاباً إيديولوجياً صرفاً، إذ لا يتردد في القول بضرورة تحويل الدين إلى إيديولوجيا. وعليه، فإنّ المفسر المعاصر، عند "حنفي"، ينبغي أن يكون كالمفسر التقليدي في منهجه الدفاعي مع اختلاف واحد وهو أنّ علماء التفسير والكلام القدامى كانوا يجعلون الله طرفاً في كل مشكلة بناء على فهمهم للوحي، في حين أنه على المفسرين المعاصرين أن يدافعوا عن الإنسان المعذب والمقهور من قبل الحضارات الغازية والمهيمنة على الأرض والثروات والشعوب ومن قبل الأنظمة المتسلطة الموالية لها في الغالب. فكما أنّ الصورة التي يحملها الإنسان عن الله هي إنتاج بشري يعكس فيها قيمته ومطامحه مضيفاً عليها صفة الإطلاق، كذلك فالمفسر من الناحية المنهجية يؤول النص القرآني ومفاهيمه حسب حاجات الأمّة المعاصرة[11]، وهكذا، فإنّ "حنفي" يربط الدين بالمصلحة والمنفعة، إذ لا تعارض بينهما كما يعتقد البعض، فالمنفعة، كما يقول "أساس الدين، وكل إيمان ينفع صاحبه، وكل إيمان لا ينفع ليس إيماناً. والإيمان في الدنيا قبل الآخرة حتى يمكن الانتفاع به"[12]، وبهذا، فإنّ الدين، بحسب "حنفي"، إذا لم يكن فيه نفع للإنسان فرداً أو جماعة، فقد مبررات وجوده وأهميته. تلك هي فلسفة اليسار الإسلامي في الدين.

واليسار الإسلامي يمثل اتجاهاً إصلاحياً داخل الفكر الإسلامي، وهو امتداد لحركات الإصلاح الديني التي ظهرت في العصر الحديث، مثلما يؤكد ذلك "حنفي" في قوله: "إنّ "التراث والتجديد" هو الوريث لحركات الإصلاح الديني الحديثة التي بدأت منذ أكثر من قرن من الزمان، وهي العملية التي تصب فيها كل محاولات التغيير الجذري للقديم إمّا على مستوى الفكر أو مستوى الواقع، وهي التي تضم في باطنها كل محاولات الفهم الجريئة لجوانب مختارة من القديم، وهي التي تعود إلى الأساس، إلى نشأة العلوم الدينية العقلية

[9]- حنفي، التراث والتجديد، مصدر سابق، 150

[10]- المصدر نفسه، ص 155

[11]- أحميدة النيفر، الإنسان والقرآن وجهاً لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000، ص ص 106- 107

[12]- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مركز الناقد الثقافي، دمشق، ط1، 2010، ص 145

ذاتها، وإعادة بنائها من المنبع"[13]. ويشير "حنفي" تحديداً إلى حركة جمال الدين الأفغاني الذي يُعدّ من المراجع الأساسية لحركة اليسار الإسلامي، فالأفغاني، كما يقول حنفي، لم يكن نصياً يبدأ من النص إلى الواقع بل كان واقعياً يبدأ من الواقع إلى النص. لا ينطلق من القرآن فالسنّة فالإجماع فالقياس، بل يبدأ من الاجتهاد فالإجماع فالسنّة فالقرآن، والواقع هو أساس النص ومصدره، فالواقع يسأل والوحي يجيب، الواقع يتغير والشرع يتغير معه[14]، وهذا المنهج هو الذي يطبقه اليسار الإسلامي في فهم النص وتفسيره.

ثانياً: منهج اليسار الإسلامي في تأويل النص

يمثل اليسار الإسلامي، كما ذكرنا، الإطار الفكري الذي تتنزل فيه نظرية حسن حنفي في تفسير القرآن، فاليسار الإسلامي كما يقول "ليس اتجاهاً فكرياً إسلامياً اجتماعياً سياسياً تقدمياً يجمع بين الماضي والحاضر، بين الأصالة والمعاصرة، بين التراث والتجديد مثل كل الحركات الإصلاحية. بل هو أيضاً نظرية أو منهج في التفسير يجمع بين النص والمصلحة، بين مقاصد الشريعة المستقاة من الأصول وتفعيلها في الواقع المعاش في الزمان والمكان"[15]. فمن خلال هذا النص يتضح لنا أنّ اليسار الإسلامي يمثل منهجاً جديداً في مقاربة النص الديني وتفسيره، فما هي أسس ومنطلقات هذا المنهج؟ وما هي أهم خصائصه؟ وما قواعده؟

يعتقد "حسن حنفي" بأنّ هناك علاقة جدلية بين النص والواقع، فالنص هو استجابة لنداء الواقع ومتطلباته ومقتضياته، والواقع يجد تفسيره في النص، إذا ما تمّ تأويل النص وفهمه تاريخياً وواقعياً، فالقرآن، كما يراه "حنفي"، مجموعة من الآيات نزلت إبان ثلاثة وعشرين عاماً، وكل آية أو كل مجموعة من الآيات تمثل حلاً أو إجابة للمشكلات التي تطرحها الحياة اليومية للجماعة الإسلامية، وعلى هذا النحو "يصدق النص في الواقع"، "وما لم ينزل النص على نازلة يظل دائراً في الهواء حائراً، لا زمان له ولا مكان"، "والواقع كذلك يجد تأويلاً له في النص"[16]، ومن هنا، فهو يؤكد على تاريخية النص الديني، فلا ينبغي أن يفهم النص ويفسر خارج السياق التاريخي وبمعزل عن الواقع. وممّا يؤكد صلة الوحي بالواقع، في نظر حنفي، مفهوم التنزيل، وهو لفظ قرآني ورد أكثر من لفظ "الواقع" حوالي ثلاثمائة مرة، كما في قوله تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) [الشعراء:192]، وقوله عز وجل (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) [الزمر:01]، وغيرها من الآيات، وأمّا كيفية التنزيل، فإنه تنزيل متدرج متتالٍ على التوالي، عدة مرات، (ونزلناه تنزيلاً) طبقاً للحاجة والمواقف التي

[13]- حنفي، التراث والتجديد، مصدر سابق، ص 50

[14]- حسن حنفي، جمال الدين الأفغاني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 1998، ص 199

[15]- حسن حنفي، الوحي والواقع. تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 9

[16]- نفسه، ص 9

تستدعي طلباً، والمشاكل التي تتطلب حلاً. وهو ما سماه علماء القرآن "أسباب النزول"[17]. ومن هنا ينتقد "حنفي" التفاسير التقليدية بوصفها تفاسير مثالية معزولة عن الواقع ومنغلقة على النص، وهو ما ترك فجوة كبيرة بين الخطاب الديني وواقع المسلمين، فأغلب رجال الدين لا يفقهون الواقع، ولا يفهمون النص فهماً واقعياً.

ولتجاوز هذه الفجوة، فإنّ منهج اليسار الإسلامي يسعى إلى "الجمع بين النص والواقع"، فالنص صورة والواقع مادة، وهو ما يؤكده "حنفي" في قوله: "فهو (اليسار الإسلامي) يبدأ من النص مثل رجل الدين، يختار الموضوعات الأكثر إلحاحاً طبقاً لفقه الأولويات ولعموم البلوى، ولا يبدأ بموضوعات كسبت من قبل مثل العقائد والشعائر أو بموضوعات تخرج عن شهادة الحس والعقل والوجدان ويصعب الوصول فيها إلى يقين، صنفها القدماء على أنها من السمعيات التي لا تعتمد إلا على الرواية مثل أمور الآخرة. ويبدأ بتحليل ألفاظ الأرض والعدل والظلم والصلاح والفساد، والتقدم والتأخر، والإعمار والاستقلال، وهو ما تحتاجه الأمّة اليوم، عربية أو إسلامية. ويبدأ أيضاً من الواقع مثل عالم الاجتماع. فالفقه أساساً هو فقه النوازل بلغة المغاربة أي فقه الواقع بلغة العصر. وما لم ينزل النص على نازلة يظل دائراً في الهواء حائراً، لا زمان له ولا مكان. وعلى هذا النحو يصدق النص في الواقع، والواقع يجد تأويلاً له وقراءة في النص. لذلك تلزمه الإحصائيات الدقيقة، من يملك ماذا؟ ومن يسيطر على من؟ ومن يحتكر ماذا؟ ومن يستغل من؟ ومن يسرق ثروة من؟ والإحصاء لغة العصر، والرقم هو النص الجديد. ويبدأ ثالثاً بتحليل الخبرات الحية عند الناس. فاللغة المباشرة أشد تأثيراً في الناس وأبلغ من تأويلات النصوص وإحصائيات الواقع. ففي التجربة الحيّة يتوحد النص والواقع. وعليها يتفق رجال الدين وعلماء الاجتماع. وهي التجربة التي يلجأ إليها أيضاً الخطاب السياسي لتبخيرها وتخديرها والإيماء بالحل القريب لها، والدعوة إلى الصبر حتى يتم عبور عنق الزجاجة"[18].

وعلى ضوء هذا النص يمكن تلخيص منهج اليسار الإسلامي في التفسير على النحو التالي:

- **الانطلاق من النص:** فالنص هو موضوع التفسير، وبذلك يلتقي "حنفي" مع كل التفسيرات الأخرى التي تلتقي جميعاً حول هذه النقطة باعتبارها تفسيرات دينية. ولكنه يختلف مع تلك التفسيرات التي تنغلق على النص ولا تنفتح على الواقع.

[17]- نفسه، ص ص 18-19

[18]- حسن حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص ص 14-15

- **انتقاء الموضوعات:** يقوم اليسار الإسلامي عند "حنفي" على انتقاء موضوعات محددة، يجعلها مداراً للفهم والتفسير، ومن خصائص هذه الموضوعات أنها ذات صلة بالواقع، وذات أولوية وأكثر إلحاحاً من غيرها. فاليسار الإسلامي لا يتناول الموضوعات التي لها صلة بالعقائد مثل وجود الله وصفاته والإيمان بالرسل والكتب السماوية والملائكة والبعث...إلخ، وهي موضوعات علم الكلام القديم، ولا الموضوعات التي تتعلق بالشعائر الدينية كالصلاة والزكاة والحج والصوم، وهي موضوعات الفقه القديم، كما أنه لا يتناول موضوعات تخرج عن شهادة الحس والعقل والوجدان، أي تنتمي إلى مجال الغيب (بلغة رجال الدين) أو الميتافيزيقا (بلغة الفلاسفة) أو السمعيات (بلغة المتكلمين)، فمثل هذه الموضوعات يصعب الوصول فيها إلى يقين. ولا مجال للاجتهاد العقلي فيها، ومثالها أمور الآخرة (أخبار الجنة والنار والحشر والنشر وعذاب القبر،...).

- **تحليل الألفاظ:** الواردة في النص التي لها صلة بواقع الأمّة العربية والإسلامية، مثل ألفاظ الأرض والإعمار، والإصلاح والفساد والعدل والظلم،... فهذه الألفاظ كما نلاحظ لها بعد اجتماعي وسياسي وحضاري.

- **الانطلاق من الواقع:** فالمفسر هاهنا أشبه بعالم الاجتماع، لأنه مطالب بدراسة واستقراء الواقع، وهو ما يعرف عند الفقهاء بفقه الواقع وفقه النوازل، وهكذا يتم الربط بين النص والواقع، فالواقع يجد أجوبة له في النص، والنص يجد إسقاطاته في الواقع. ومن هنا، فإنّ المفسر بحاجة إلى القيام بإحصائيات في الواقع من أجل القيام بتحليل اجتماعي دقيق حول "من يملك ماذا؟ ومن يسيطر على من؟ ومن يحتكر ماذا؟ ومن يستغل من؟ ومن يسرق ثروة من؟ والإحصاء لغة العصر.

- **تحليل الخبرات الحية عند الناس:** وهو ما يعرف بالمنهج الظاهراتي، فاللغة المباشرة، كما يقول حنفي، أشد تأثيراً في الناس وأبلغ من تأويلات النصوص وإحصائيات الواقع. ففي التجربة الحيّة يتوحد النص والواقع. وعليها يتفق رجل الدين وعالم الاجتماع. وهي التجربة التي يلجأ إليها أيضاً الخطاب السياسي لتبخيرها وتخديرها والإيماء بالحل القريب لها، والدعوة إلى الصبر حتى يتم عبور عنق الزجاجة.

ثالثا: خصائص المنهج

من خلال عرضنا لمنهج اليسار الإسلامي الذي يتبناه "حنفي" في تفسير القرآن يتبين لنا أنّ هذا المنهج يتميز بجملة من الخصائص والمميزات نوجزها فيما يلي:

- الجمع بين النص والواقع، أي بين الجانب العلمي والجانب الإيديولوجي، أمّا الجانب العلمي فيتجلى في التركيز على الواقع، فيقوم برصد الواقع رصداً علمياً معتمداً على لغة الإحصاء، وهي لغة الرياضيات،

حتى تكون تحليلاته الاجتماعية دقيقة، أي أنه يصف ما هو كائن لا ما ينبغي أن يكون. وأمّا الجانب الإيديولوجي فيتجلى في تأويل هذا الواقع وفق النصوص الدينية، وكذلك تأويل النص الديني وفق حاجات الناس في الواقع، فهو لا ينغلق على النص كما يفعل رجل الدين، ولا ينغلق على الواقع كما يفعل السوسيولوجي، بل يحاول أن يوحد بينهما. ومن هنا ينتقد "حنفي" الخطابين معاً؛ الديني والعلمي، الأول من حيث كونه يتمركز حول النص ويهمل الواقع ويقفز عليه، والثاني من حيث أنه يتمركز حول الواقع ويقفز على النص، يقول في هذا الصدد: "وقد تعود الناس على خطابين: الأول خطاب ديني يعتمد على النصوص وتفسيرها خارج الزمان والمكان، وخاصة لو كانت نصوصاً عقائدية شعائرية خالصة أو نصوصاً تتعلق بأمور الآخرة. وظيفته الترويح عن النفس، وتبخير الأزمات، والتعويض الروحي، والانتقال من هذا العالم البائس الشقي إلى عالم آخر، عالم السعادة والنعيم. وهو الخطاب السائد في معظم خطب الجمعة والبرامج الدينية في قنوات الفضاء. والثاني خطاب اجتماعي علمي، يحلل الواقع الاجتماعي الإحصائي بدعوى الالتزام بالموضوعية وإعطاء الحقائق على الأرض كما هي دون تأويل ذاتي أو تأويل إيديولوجي. وهو ما يستحيل أيضاً في العلوم الاجتماعية، فكل تحليل كمي له قراءة كيفية، وكل واقع له رؤية. فالواقع متغير ومتحرك ومتطور، ينتقل من مرحلة إلى مرحلة. فالعلم الاجتماعي يرصد مسار التغير الاجتماعي إلى الوراء لا إلى الأمام، وهو ما يسمى بمعارك التخلف والتقدم. الخطاب الأول نص دون واقع، والخطاب الثاني واقع دون نص."[19]

ينتقد حنفي كلا الخطابين إذن، ومن ثمة، فهو يدعو إلى خطاب إصلاحي مستنير يتجاوز الخطابين معاً من حيث كونه يجمع بين النص والواقع وينفتح عليهما معاً، فلا ينغلق على النص ولا ينغلق على الواقع، يقول مؤكداً ذلك: "وإذا كان رجل الدين مستنيراً فإنه ينتقل من النص إلى الواقع، ومن كلام الله إلى أوضاع البشر حتى يكون خطابه أكثر دلالة وأوقع عند الناس الذين يجدون للنص صدى في حياتهم اليومية. وقد يغالي بعضهم في ذلك فيتحول الخطاب الديني إلى نقد اجتماعي خالص للسلطة والعادات الاجتماعية. ولو كان علم الاجتماع مستنيراً، ويعلم أنّ الظاهرة الاجتماعية في صحيحها تراكم ثقافي، ومتصل تاريخي فإنه يحيل إلى الثقافة الشعبية ويكتشف أنّ مكونها الرئيسي النص الديني والمثل الشعبي فيحيل إليه من باب تعليل الظواهر الاجتماعية والكشف عن مكوناتها ووضع أساليب تغييرها"[20].

وهكذا، فإنّ حسن حنفي يقدم خطاباً بديلاً للخطاب السلفي المنغلق على النص وللخطاب العلماني المنغلق على الواقع المستبعد للنص، فهو يجمع بين النص والواقع، وهذا المنهج هو ما يسميه بالطريق الثالث،

[19]- حسن حنفي، الوحي والواقع. تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 13

[20]- المصدر نفسه، ص ص 13 - 14

وفي توصيفه لهذا المنهج يقول: "وهناك منهج ثالث يلتقي فيه الخطابان الديني والاجتماعي وهو منهج تحليل الخبرات اليومية ومعاناة الناس حتى ينزل الخطاب الديني على واقع حي، ويأخذ الخطاب الاجتماعي الإحصائي دلالات حية من تجارب الناس. فالأرقام صياغات كمية لحالات نفسية. والواقع الإحصائي لا يتكلم بنفسه. وهو مجرد ترجمة لمعاناة الناس. فالبشر هم الأساس، هم حلقة الوصل بين الدين والمجتمع، بين النص والواقع، بين الخطاب الديني والخطاب الاجتماعي"[21].

- **التوحيد بدل الاستقطاب:** منهج اليسار الإسلامي هو منهج تركيبي وليس منهجاً اختزالياً، فهو يستعمل في ثلاثة مناهج في آن واحد، منهج رجل الدين الذي يعتمد على النص وحده، ومنهج رجل العلم الذي يستبعد النص ويعتمد على التحليل العلمي للواقع، ومنهج تحليل الخبرات الشعورية اليومية والحية للناس، والهدف من هذا التوحيد درء الاستقطاب الحالي الذي أدى إلى انقسام الفكر إلى علمي وديني، الأمر الذي تسبّب في نوع من الصراع الإيديولوجي الذي نجم عنه انقسام الأمّة بدل وحدتها، يقول مؤكداً على الخاصية التركيبية للمنهج وأبعادها الإيديولوجية المتمثلة في توحيد الأمّة ونبذ الفرقة والصراع بينها: "اليسار الإسلامي وتعدد مناهجه هو الذي يوحد بين الخطابات المتصارعة ويقارب بينها. فالخطاب الديني النصي لرجل الدين يكتمل في الخطاب الاجتماعي الإحصائي لعالم الاجتماع. وكلاهما يجد مصداقيته في تحليلات الأدباء والفنانين والفلاسفة الذين يصورون الواقع من خلال معاناة الناس. وبالتالي تقل حدة الاستقطاب الحالي بين السلفيين والعلمانيين بتوجيه كل من الفريقين حول مصالح الناس ومعاناتهم اليومية. فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم"[22]، وهذا يعني أنّ اليسار الإسلامي له وظيفة إيديولوجية بالأساس، بحيث أنه يسعى إلى توحيد الخطاب الإسلامي بعد هذا الاستقطاب الذي نشهده في الساحة الفكرية والذي يمثل الاتجاه الديني السلفي قطبه الأول والاتجاه العلماني اللاديني قطبه الثاني، فاليسار الإسلامي، كما يقول حنفي، "يستعمل هذه المناهج الثلاثة في آن واحد لتوحيد الخطاب الثقافي ولتجاوز الاستقطاب الحالي بين السلفيين والعلمانيين. وهو أساساً استقطاب في الخطاب وفي مناهج التفكير"[23].

- **أنه تفسير مقاصدي يراعي مصلحة الإنسان ويضعها في المقام الأول:** فاليسار الإسلامي يرى أنّ الدين جاء لمصلحة الإنسان، وأنّ الوحي هو إجابة للواقع، ومن هنا يقوم منهج اليسار الإسلامي في تفسير النص على البحث عن مقاصد الشارع، ومصلحة الإنسان من الحكم الشرعي، فالمصلحة كما يقول حنفي

[21]- حسن حنفي، الوحي والواقع. تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 14
[22]- المصدر نفسه، ص 15
[23]- نفسه، ص 14

"أساس التشريع، ويعني ذلك أنّ الشريعة وضعت لمصالح العباد. وهو أصل فيها مثل أصول العقيدة، ومقاصد الشارع مطلقة وعامة، لا تختص بموضوع دون موضوع. وهي مطردة في كليات الشريعة وجزئياتها، هي الخيط الرابط للأفعال، والمصب النهائي للسلوك. والمصلحة من الصلاح، أي كون الشيء على هيئة عامة بحسب ما يراد به. فالمصلحة ليست المنفعة فقط، المصلحة كلية، والمنفعة جزئية. المصلحة عامة والمنفعة خاصة. المصلحة مادية ومعنوية، والمنفعة مادية فحسب، وتعني عرفاً السبب المؤدي إلى الصلاح، فتضم الوسيلة والغاية، الأداة والتحقق. وتنقسم إلى عبادات ومعاملات حتى وإن كانت العبادات حق الله، والمعاملات حق الإنسان. فالكل حق الإنسان لأنّ "الله غني عن العالمين". والرأسي لصالح الأفقي لأنّ "الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه"[24].

وفي نظر "حنفي"، فإنّ المصلحة ليست فقط أساس التشريع بل هي أساس الوجود كله، مصداقاً لقوله تعالى: (أما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)[25]. وهكذا، فإنّ تفسير النص ينبغي أن يتم حسبه وفق هذا المبدأ، أي ربط النص بمصالح الناس ومنفعتهم، فالدين، كما يقول، لا يتعارض أبداً مع المنفعة ومع المصلحة كما يظن بعض الناس، فقد ذكر لفظ المنفعة ومشتقاته في القرآن الكريم حوالي خمسين مرة. فهو إذن موضوع رئيس. وتدور كل الآيات، حسبه، حول ثلاثة محاور: أنّ المنفعة أساس الدين، وأنها مقياس صحة الإيمان، وأنّ الدين هو الحفاظ على منافع الناس في حياتهم وفي دنياهم، ومن ثمة فكل إيمان لا ينفع ليس إيماناً[26].

هكذا يرى حنفي أنّ المصلحة "ليست فقط سلوكاً طبيعياً تلقائياً بل هي سلوك مدفوع بالشرع. المصلحة مأمور بها، وليست فقط مأذوناً فيها. فالأصل في المنافع الإذن، وفي المضار المنع، المصلحة طبيعية، والمضرة ضد الطبيعة. وهو مثل ما يقوله الفلاسفة في أنّ الخير هو الأصل والشر هو الفرع، مجرد غياب الأصل. الخير هو القاعدة والشر الاستثناء"[27]. ونفهم من هذا أنّ "حنفي" يعطي الأولوية للمصالح العامة على النصوص والحروف، وهو ما يشي به الإهداء الذي ضمنه كتابه من النص إلى الواقع (الجزء الثاني) إذ يقول: "إلى كل من يعطي الأولوية للمصالح العامة على النصوص والحروف". وفي ذلك تأكيد على البعد الواقعي لنظرته في التفسير.

[24]- حنفي، من النص إلى الواقع، الجزء الثاني (بنية النص)، ط2، 2005، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ص 486

[25]- المصدر نفسه، ص 487

[26]- الوحي والواقع، مصدر سابق، ص 145

[27]- حنفي، من النص إلى الواقع، المصدر السابق، ص 487

رابعاً: اليسار الإسلامي ومناهج التفسير الأخرى

يؤكد حسن حنفي أنّ منهج اليسار الإسلامي في فهم القرآن وتفسيره "ليس منهجاً جديداً، بل يضم معظم مناهج التفسير السابقة ويعيد استخدامها كأجزاء من منهج كلي أشمل"، وتتمثل هذه المناهج فيما يلي[28]:

1- المنهج التاريخي: وهو الذي يعتبر النص مصدراً للمعلومات التاريخية يستقيها من خارجه، لذلك ارتبط بعلم التاريخ، فقد كان المفسرون الأوائل مؤرخين كالطبري وابن كثير. وأهمية هذا المنهج تكمن في كونه يفيد في معرفة أسباب النزول وسياق الآيات، والناسخ والمنسوخ وتطور الأحكام الشرعية في الزمان وطبقاً لتغير الظروف والأحوال، لقدّ النص على الواقع، والحكم الشرعي على الطاقة، فلا غنى إذن عن هذا المنهج في كل تفسير يفهم النص وفق الواقع على غرار تفسير اليسار الإسلامي.

2- المنهج اللغوي: ويقوم هذا المنهج على فقه اللغة واستعمال قواعدها من نحو وصرف ومجاز وغيرها، وهو يفيد في تحليل المضمون لمعرفة دلالة الألفاظ على المعاني وكما هو الحال في فلسفة اللغة، دلالة الأسماء والأفعال والحروف والضمائر والإضافة، والفاعل والمفعول بأنواعه المختلفة، والمعرفة والنكرة، والشرط والمشروط، وأقسام الكلام، والخبر والإنشاء والمنادى والاستفهام، فاللغة هنا وسيلة وليست غاية في ذاتها.

3- المنهج الفقهي: ويستخدم هذا المنهج لمعرفة مقاصد الأحكام وغاياتها، والحكمة منها والباعث عليها باعتبارها معايير للسلوك بعيداً عن الطابع التشريعي الصوري للفقه، الأوامر والنواهي، وكأنّ الإنسان مجرد آلة للتنفيذ بصرف النظر عن مشاعره ورغباته وميوله وبواعثه وحريته في الاختيار، وهنا نلاحظ أنّ "حنفي" يأخذ بنظرية المقاصد في علم الأصول.

4- المنهج الكلامي: ويتمثل في التفسير الكلامي العقائدي الذي يعرض لأصول العقيدة أو قواعد العقائد، كوجود الله وخلق العالم وخلود النفس، كما تفعل التفسيرات الكلامية مثل تفسير الزمخشري والدخول في عقائد الفرق، دفاعاً عن فرقة أو نقداً لفرقة أخرى، معتزلة أو أشعرية، سنية أو شيعية أو خارجية. وفي نظر حنفي، فإنّ العقائد ليست أشياء بل هي بواعث على السلوك. وليست موضوعاً للجدل العقلي حول تصورات تقوم على التنزيه أو التشبيه وأحياناً التجسيم بل هي تحليل لأعماق النفس البشرية لمعرفة بواعث السلوك. فالعقائد تمثل تصورات عامة للحياة، للإنسان والمجتمع، للفرد والجماعة كما تفعل الإيديولوجيات الحديثة.

[28]- حنفي، من النص إلى الواقع، مصدر سابق، ص ص 9 - 11

تستنبط منها نظم سياسية واجتماعية واقتصادية. وهي معنى العبارة الشهيرة "الإسلام عقيدة وشريعة" التي استخدمها بعض الفقهاء ورجال الدين.

5- التفسيرات الفلسفية: ومن أشهر التفاسير التي تمثل هذا النوع من التفسير مفاتيح الغيب للرازي، وعلى الرغم من أهمية هذا التفسير إلا أنّ ما يؤخذ عليه هو إيغاله في النظر العقلي والتجريد الفلسفي، لذلك فإنّ "حنفي" يأخذ منها دون الإيغال فيها مبرراً ذلك بقوله: "حتى لا يبعد النظر عن العمل".

6- التفسيرات الصوفية: لا يخفي حنفي إعجابه بالتصوف من حيث أنه "حركة مقاومة سلبية ضد مظاهر البذخ والترف والتكالب على الدنيا والصراع حول السلطة السياسية واستشهاد أئمة آل البيت ضد الأمويّة للعودة إلى الشرعية وأصول البيعة القائمة على العقد والشورى والاختيار"، ومن هنا، فإنّ اليسار الإسلامي يستفيد من التفسيرات الصوفية وخصوصاً في مسألة التمييز بين الظاهر والباطن، بين الشريعة والحقيقة والطريقة، بين علم اليقين وحق اليقين وعين اليقين، بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب، ولكن من دون إيغال في الباطنية بل بالعودة إلى العالم من جديد.

7- التفسيرات المعاصرة: ومن أشهرها التفسيرات السياسية مثل "ترجمان القرآن" للماوردي، والتفاسير الاجتماعية مثل "تفسير المنار" للإمامين محمد عبده ورشيد رضا، والتفاسير الأدبية مثل "في ظلال القرآن" لـ"سيد قطب". فتفسير اليسار الإسلامي، كما يقول حنفي، هو استئناف لهذه التفسيرات المعاصرة، وهو ليس تفسيراً طائفياً لنصرة فرقة على فرقة في العقيدة أو في السياسة بل هو تفسير يجمع شتات الأمّة دفاعاً عن وحدة عقيدتها واطراد مصالحها العامة.

ومن هنا يتضح أنّ "حنفي" يستثمر في المناهج السابقة محاولاً بذلك القيام بعملية تركيب تحتوي المناهج السابقة وفي الوقت نفسه تتجاوزها، إذ كل منهج من هذه المناهج له إيجابياته وميزاته كما أنّ له نقائصه وهناته.

خامسا: قواعد المنهج:

يقوم منهج التفسير عند "حسن حنفي" على أربعة قواعد، أسوة ـ كما يقول ـ بقواعد المنهج عند "ديكارت" وعند "فرنسيس بيكون"، وهي كالتالي[29]:

[29]- حنفي، من النص إلى الواقع، مصدر سابق، ص ص 11- 12

1 ـ البداية بالشعور أو بالوجدان، وهي لحظة الانفعال الحالية، ما يشعر به الناس سواء على مستوى الشعور أو اللاشعور. والشعور أخص من الإنسان. هي إحساسات الإنسان ومشاعره التي يصورها الأديب ويعبر عنها المفكر والفنان. "استفت قلبك وإن أفتوك". وهنا نلاحظ كيف أنّ "حنفي" ينطلق من الذاتية متأثراً في ذلك بالمنهج الفينومينولوجي الذي يوليه أهمية كبيرة في تأويل النص، "فالعودة إلى الظاهريات، كما يقول، تضمن حضور الواقع داخل النص الذي مازالت تهيمن عليه النزعة الدينية"[30]، بمعنى توجيه النص بما يخدم الواقع، فمن خلال نزعته الفينومينولوجية يتناول علاقة الفكر بالواقع مغلباً الواقع على الفكر، معتبراً الواقع مصدر كل فكر، من أجل ذلك يتغير الوحي تبعاً لتغير الواقع، يتجدد طبقاً له ويتطور بتطوره[31]. وهكذا أولى "حنفي" الشعور (الذي هو أساس المنهج الفينومينولوجي) أهمية كبيرة في مقاربة الدين عموماً، والدين الإسلامي خصوصاً، من أجل تأصيل الإسلام معرفياً، انطلاقاً من الوحي، وبذلك يتحول الدين إلى موضوع للخبرة الشعورية، وبذلك تنزع عنه صفته الطوباوية المثالية.

وينفي "حنفي" أن يكون هذا المنهج (تحليل الشعور) من آثار الوافد الخارجي، أي أنه ليس تطبيقاً لما يعرف بالمنهج الظاهراتي بل هو استمرار للموروث الداخلي في تحليل الكلام النفسي، ليس فقط في قضية خلق القرآن كحل لقضية القدم والحدوث والتوسط بينهما، بل في كل تحليلات الخطاب في كل العلوم النقلية والعقلية[32].

2 ـ رصد حاجات الناس ومصالح الأمّة كواقع إحصائي. من يملك ماذا؟ ومن يستهلك ماذا؟ ومن يسيطر على ماذا؟ ومن يقهر من؟ لماذا يبعد الدين عن الحياة ولا يلبي القرآن المطالب الرئيسية للعصر؟ إنّ الحرمان الذي يعيشه الناس من عدم إشباع الحاجات الأساسية، الخبز الصحي، والماء النقي، والإسكان الكريم، واللباس العفيف، والصرف الصحي، والعلاج المجاني، والتعليم القويم هي مادة التفسير الأولى. فالواقع قلب النص وبؤرته الأولى. الواقع مادة والنص صورة. مهمة المفسر وضع المادة في الصورة لتشكيلها وتحقيقها. وهنا يكون المفسر أشبه بالسوسيولوجي في تحليله للواقع تحليلاً علمياً دقيقاً.

3 ـ علاقة الذات بالموضوع والتفاعل بين الشعور والواقع. ويعني ذلك، تحويل هذا التفاعل إلى مشروع أو رؤية أو برنامج عمل. وتتكون عناصر هذا البرنامج طبقاً لما سُمّي فقه الأولويات: الأرض نظراً للاحتلال،

---

[30]ـ حسن حنفي، ظاهريات التأويل، محاولة في تفسير وجودي للعهد الجديد، ج 2، مكتبة النافذة، ط1، 2006، ص ص 52 - 53

[31]ـ محمد جمعة، مشروع حسن حنفي للتراث عين على الأصالة وأخرى على المعاصرة، ضمن أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر، قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط1، 1998، ص 137

[32]ـ حنفي، من النص إلى الواقع، الجزء الثاني، مصدر سابق، ص 8

واحتلال الأرض، والتنمية، والصحراء القاحلة، والأمّة دفاعاً عن وحدتها ضد التجزئة والطائفية والعرقية والقبلية والعشائرية، والفقر ضد التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وضرورة إعادة توزيع الدخل، ووضع سياسة جديدة للأجور طبقاً لقيمة العمل وحده، والقهر وثقافة السلطان والفراعنة الجدد دفاعاً عن قول الحق في مواجهة السلطان الجائر، والشورى والديمقراطية ضد نظم الحكم التسلطية، والتقدم ضد التخلف، والإصلاح ضد الإفساد، والمبادرة الحرة والخيال السياسي ضد السكون والعجز والتبعية والملل السياسي.

4 ـ التجربة المشتركة مع القارئ وإشراكه في التفسير إلى أي حد يعبر عن حاجاته ويلبي مطالبه، ويحقق أمنياته، ويقضي على حرمانه، وينهي سلبيته، ويشركه في إعادة بناء ثقافته الوطنية، وإعادة تفسير كتابه. إلى أي حد يعبر التفسير الجديد عما يجيش في صدره، ما يخاف من الكشف عنه للقضاء على ازدواجية الخطاب والشخصية والفصام بين القول والعمل دفاعاً عن الصدق في القول والإخلاص في العمل؟ فإذا وعى القراء، فإنهم يتحولون إلى وعي جمعي وكتلة تاريخية تساهم في عملية التغيير الاجتماعي، وتشارك في صنع التقدم التاريخي، وبالتالي تتحرك الأمّة، وتعود إلى مسارها في التاريخ لتنهض في دورة حضارية ثانية، تنهي بها عصرها الوسيط، وتبدأ بها عصورها الحديثة"[33]. ومثل هذه الفكرة نجدها عند أحد الفلاسفة المسيحيين ألا وهو "أونامونو". فلم يخفِ حنفي إعجابه بفكرة "أونامونو" عن الوحي الحي أو الوحي المعاش بالتجربة في مواجهة الوحي المكتوب وعن شهادة الروح قبالة شهادة الكتاب وعبودية الحرف، ويرى أنّ هذه الفكرة طريفة وصادقة، تخاطب التجربة الإنسانية، وسوف نجد صدى هذه الأفكار عند "حنفي" الذي يحاول أن يطبقها على القرآن كما كان "أونامونو" يطبقها على الكتاب المقدس. إلا أنّ "حنفي" يتحفظ عليها من حيث أنها تقضي على النقد التاريخي الذي يقوم أساساً على دراسة النص ومعرفة مصدره وتتبع تطوره ونشأته وتخلط بين التصوف والعلم[34].

سادسا: مادة التفسير وموضوعه

قلنا سابقاً إنّ حسن حنفي ينطلق في فهم القرآن وتفسيره من الواقع، فالواقع، كما يقول، هو مادة التفسير والنص صورته، ومن هنا نتساءل: ما هي يا ترى هذه القضايا التي تشكل مادة التفسير وتنتمي إلى صميم الواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي للأمّة العربية والإسلامية، وتشكل أولوية لليسار الإسلامي؟

[33]ـ حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 11

[34]ـ محمد جمعة، مشروع حسن حنفي للتراث، مرجع سابق، ص ص 136 - 137

لقد عاش حنفي فترة جد حرجة من التاريخ الإسلامي، فقد ولد عام 1934 وما يزال يواصل مسيرة الحياة إلى يومنا هذا، أي أنه عايش وعاصر أهم الأحداث السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي عرفها العالم الإسلامي إبان هذه المرحلة من تاريخه، وأقل ما يقال عن هذه الفترة إنها تمثل حالة التخلف الاقتصادي والاجتماعي وعدم الاستقرار السياسي والاضطراب الثقافي، فخلال هذه الفترة تعرض العالم الإسلامي للاستعمار الغربي الحديث وما صاحبه من انحطاط وتخلف، تجلت في الفقر والأمراض والبطالة... وقد ورثت الأمّة الإسلامية عن الاستعمار العديد من الأمراض الاجتماعية والثقافية والاقتصادية كالتبعية الاقتصادية والمديونية والصراعات السياسية التي أدت إلى انقسام الأمّة الإسلامية إلى دويلات ما أدى إلى تبخر حلم الوحدة الإسلامية، وكذلك بروز بعض الأنظمة الاستبدادية التي استولت على خيرات الأمّة وثرواتها، ومارست شتى أنواع القمع والظلم والتهميش على شعوبها، وتعتبر قضية فلسطين من أهم القضايا الإسلامية التي تحتل موقع الصدارة في هذه الأحداث، كما شهد "حنفي" حركات التحرر الوطني والاستقلال التي قامت في مختلف البلاد الإسلامية ضد المستعمر، ومن الأحداث التي عاصرها وكان لها وقعها على تفكيره، صعود الأنظمة الاشتراكية إلى الحكم وعلى رأسها النظام الناصري، هذه الأنظمة التي كان يعول عليها كثيراً في تحقيق مشروع النهضة والتقدم الذي ما فتئ حنفي يناضل من أجله، كما شهد حدث قيام الجمهورية المتحدة الذي يعد بنظره خطوة نحو الوحدة العربية، مثلما شهد فشل هذه الجمهورية وتبخر حلم الوحدة، ومن الأحداث التي شهدها أيضاً وكان لها وقعها على تفكيره غزو العراق من طرف حلف الناتو بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، الذي ترك آثاراً خطيرة على هذا البلد العربي الإسلامي، وشهد إلى جانب ذلك ما عُرف بثورة الربيع العربي وما كان لها من آثار أيضاً على البلدان العربية، وغير ذلك من الأحداث كثير. كل هذه الأحداث وغيرها شكلت مادة أساسية لليسار الإسلامي باعتباره منهجاً لفهم القرآن وتفسيره، وهكذا نجد أنّ قضايا الأرض والعدالة الاجتماعية، والحرية، والاستبداد، والإصلاح، والفساد، والتنمية، والحوار، والمقاومة وغيرها، كلها قضايا تشكل موضوعات أساسية لليسار الإسلامي، وهو ما يؤكده حنفي في قوله: "الأرض نظراً للاحتلال، احتلال الأرض، والتنمية، الصحراء القاحلة، والأمّة دفاعاً عن وحدتها ضد التجزئة والطائفية والعرقية والقبلية والعشائرية، والفقر ضد التفاوت الشديد بين الأغنياء والفقراء، وضرورة إعادة توزيع الدخل، ووضع سياسة جديدة للأجور طبقاً لقيمة العمل وحده، والقهر وثقافة السلطان والفراعنة الجدد دفاعاً عن قول الحق في مواجهة السلطان الجائر، والشورى والديمقراطية ضد نظم الحكم التسلطية، والتقدم ضد التخلف، والإصلاح ضد الإفساد، والمبادرة الحرة والخيال السياسي ضد السكون والعجز والتبعية والملل السياسي"[35].

[35]- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 11

وسوف نتعرف فيما يلي على طريقة "حنفي" ومنهجه في التعامل مع مثل هذه القضايا لنتبين منهجه في تفسير النص وفهمه.

سابعا: بعض تطبيقات المنهج

يقوم منهج حنفي في التفسير (اليسار الإسلامي)، مثلما ذكرنا سابقاً، على انتقاء الموضوعات ذات الأولوية، أي التي لها علاقة بمعاناة الناس في حياتهم اليومية، وطبقاً لذلك، فإنّ هناك ثلاث قضايا أساسية تشكل بؤرة الاهتمام في نظرية التفسير عنده وفي تفكيره بصفة عامة، ويتعلق الأمر بمسائل الأرض، والعدالة الاجتماعية، والحرية. وهو ما يؤكده في قوله: "في برنامج اليسار الإسلامي تأتي العدالة الاجتماعية كمطلب ثالث بعد تحرير الأرض كمطلب أول، وحرية المواطن كمطلب ثان"[36]. غير أننا في هذا البحث سوف نتوقف عند موضوع واحد من جملة هذه الموضوعات التي تناولها اليسار الإسلامي ألا وهو موضوع الأرض؟ فما تأويل الأرض في القرآن؟ وكيف يوظف اليسار الإسلامي النص القرآني في مقاربة هذا الموضوع؟

1- لفظ "الأرض" في القرآن:

لفظ "الأرض" من الألفاظ القرآنية، فقد ذكر (461) مرّة بما يدل، كما يقول "حنفي"، على أنه من الألفاظ الرئيسية فيه، وليست موضوعاً هامشياً، ومع ذلك، فإنه لم يحظ بالاهتمام اللازم في الفكر الديني الإسلامي وهو ما يفسر ابتعاد هذا الفكر عن الواقع وتمركزه حول النص وانغلاقه عليه، وعلى العكس من ذلك، فإنّ اليسار الإسلامي يعطي للأرض اهتماماً خاصاً فيجعلها بؤرة اهتمامه، وهنا يأتي السؤال: لماذا هذا الاهتمام بموضوع الأرض في منهج اليسار الإسلامي كما يمثله حنفي؟

يمكن القول إنّ اهتمام "حنفي" بموضوع الأرض قد جاء استجابة للواقع وإكراهاته، ونعني بذلك اغتصاب أرض فلسطين الإسلامية من طرف اليهود، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، بناء على مصلحة الإنسان التي تشكل أحد مقاصد الدين وأحد أولوياته، فالإسلام أعطى أهمية كبيرة للأرض باعتبارها المكان الذي يقيم عليه الإنسان العمران الحضاري وهو أحد مقاصد الدين (وجعلكم خلائف في الأرض واستعمركم فيها...)، وهي مصدر الرزق والنشاط الاقتصادي...غير أنّ الإنسان المسلم لم يعد يهتم بالأرض، ولعل هذا أحد أسباب

[36]- نفسه، ص 115

تخلفه الاقتصادي الذي رهن سيادته واستقلاله، حيث صار تابعاً للدول المتقدمة اقتصادياً وصارت تتحكم في سيادته واستقلاله. وضمن هذا الإطار، يرى "حنفي" أنّ الأرض ينبغي أن تتحول إلى جزء من عقيدة الأمّة[37].

وانطلاقاً من هذه الخلفية السياسية المتمثلة في اغتصاب أرض المسلمين واحتلالها، يحاول "حنفي" أن يؤسس لعقيدة الأرض أو لاهوت الأرض، يقول: "لقد ظل الصليبيون قرنين ونصف في أوطاننا. وإسرائيل مزروعة في الأرض منذ ستة عقود. إعداد الأمّة بالثقافة السياسية جزء من الإعداد للمعركة، ليس عن طريق حماسيات إدارات التوجيه المعنوي، بل بإعادة تأسيس العقيدة على الأرض. فالأرض جزء من الألوهية (إله السماوات والأرض)، (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله). على هذا النحو يستطيع المفكر العربي أن يساهم في صمود سوريا وحزب الله وإيران، ليس فقط بالجهاد المسلح المتهم بالعنف والإرهاب، بل عن طريق إعادة بناء الموروث القديم، وجعل الأرض محور العقيدة وبؤرة الثقافة السياسية"[38].

هكذا نلاحظ كيف أنّ حنفي يحاول إعطاء مضمون للنص انطلاقاً من ضغط الواقع وإكراهاته. فهو يدعو إلى إعادة بناء الموروث الديني بما في ذلك علم العقيدة وعلم التفسير وفق مقتضيات الواقع السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها. ضمن هذا الإطار يحاول حنفي تقديم فهم جديد لمعنى الأرض في القرآن، فيبين أنّ كلمة "الأرض" ذكرت في القرآن "معرفة بالألف واللام في معظم الحالات" ومعنى ذلك، حسبه، "أنها ليست ملكاً لأحد أو تنسب لأحد"، وهو بهذا التفسير يرد على اليهود المحتلين الذي اعتبروا فلسطين هي أرض الميعاد التي وعدهم الله بها، واستناداً لهذه العقيدة اغتصبوا أرض فلسطين واحتلوها منذ عشرات السنين وما زالوا يفعلون. كما ذكرت الأرض "معرفة بضمير الملكية (خمس مرات)، ضمير المتكلم الجمع "أرضنا" (ثلاث مرات)، وضمير المتكلم المفرد "أرضي" (مرة واحدة)، وضمير الغائب الجمع "أرضهم" (مرة واحدة) ودلالة هذه الضمائر في نظر حنفي هي كالتالي: ضمير الجمع يعود علينا نحن المسلمين، "فالأرض لنا نحن المسلمين"، كما يقول، وضمير المتكلم المفرد يعود على المواطن "الفلسطيني القابع فيها منذ آلاف السنين"، فهو صاحب الأرض، وأمّا ضمير الغائب الجمع فيعود على اللاجئين الفلسطينيين المطرودين من أرضهم[39]. ومن خلال هذا التفسير يتضح البعد السياسي في فهم القرآن عند حنفي، فهو يفهم النص وفق مقتضيات الواقع الراهن، بحيث يربط بين دلالة الأرض في القرآن وأرض فلسطين واغتصابها في الواقع، دون أن يبين لنا وجه الدلالة هنا ولا المسوغات أو الضوابط اللغوية التي استند عليها في هذا الفهم، وهذا

[37]- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 83

[38]- المصدر نفسه، ص 84

[39]- المصدر السابق، ص 85

ما يجعلنا ننظر إلى هذا التفسير على أنه خطاب سياسي ذو وظيفة إيديولوجية أقرب منه إلى علم التفسير كما صاغه القدماء. بمعنى أنّ هذا التفسير يخضع لضوابط إيديولوجية أكثر منها معرفية، فهو يستثمر في النص الديني لتحقيق أغراض سياسية ومكاسب إيديولوجية بالأساس دون أن تتوفر فيه المعايير المعرفية التي نجدها في علم التفسير كما صاغه القدماء، وأهم هذه المعايير المعيار اللغوي، وهو ما يجعلنا نضعه في خانة التأويل ليس فقط البعيد بل المستبعد، دون أن يعني ذلك التقليل من أهمية هذا التفسير والفهم وخصوصاً من الناحية الإيديولوجية والسياسية، فهو محاولة لإقامة علم التفسير على أساس إيديولوجي وسياسي (عقيدة الأرض) وذلك في مواجهة اللاهوت اليهودي على وجه الخصوص الذي يستند إلى العهد القديم في تبرير احتلال فلسطين (عقيدة الميعاد)، ولا يخفي حنفي البعد الإيديولوجي لهذا التفسير حيث يقرّ بأنّ اليسار الإسلامي يمثل إيديولوجيا دفاعية نضالية.

وفي نظر حنفي، فإنّ لفظ الأرض في القرآن "ذكر مجروراً بالإضافة (331 مرة) أكثر منه منصوباً أي

مفعولاً به (86 مرّة)، وتأويل ذلك هو أنّ الأرض هي "مجال الفعل"، فالأرض، كما يقول، لا تفعل بنفسها بل تتلقى فعل الأفراد والجماعات عليها، ولهذا لم تذكر مرفوعة، أي فاعلاً سوى (34 مرّة)[40].

وأمّا بخصوص ما ورد في القرآن الكريم عن الله والأرض والسماء كما في قوله تعالى (إله السماوات والأرض)، وقوله (رب السماوات والأرض)، وقوله أيضاً (هو الذي في السماء إله وفي الأرض إله)، فإنّ حسن حنفي يرى أنّ هذا الاقتران بين السماء والأرض له دلالة ومغزى، وهو أنّ "من استولى على الأرض فقد استولى على السماء أيضاً لأنهما قرينان. ومن استولى على الأرض فقد استولى على نصف الألوهية لأنّ الألوهية في السماء والأرض"[41]، وهذا الفهم ينطبق عليه ما قلناه عن سابقه وهو أنه تأويل مستبعد هو الآخر، إذ ليس هناك ما يدل على هذا الوجه من المعنى، فالآيات السابقة ليس فيها ما يدل على السيطرة من أي وجه ما يجعل ربما هذا التأويل أكثر من مستبعد، ثم إنه لم يتضح لنا معنى القول بالاستيلاء على نصف الألوهية، وهل يصح هذا القول من الناحية الشرعية ومن ناحية العقيدة على وجه التحديد؟ وهل هذا القول يعني أنّ أمريكا قد حازت على نصف الألوهية وقد تحقق لها اليوم الاستيلاء على الأرض إلى حد بعيد؟ وإذا كانت أمريكا تسعى إلى الاستيلاء على السماء أيضاً من خلال حرب النجوم والكشوفات العلمية في الفضاء فهل ذلك يعني أنها ستستولي على الألوهية كاملة؟ أم أنّ المراد من هذا القول شيء آخر في نفس يعقوب، لعله يكون الباعث عليه

[40]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[41]- المصدر السبق، ص 85

دافع إيديولوجي محض ألا وهو تحفيز المسلم على العمل من أجل التمكن من السيطرة على الأرض حتى تتأتى له السيطرة التي تجعله سيداً، ومع ذلك يبقى الاعتراض قائماً لأنّ في مثل هذا الخطاب (الاستيلاء على نصف الألوهية) ما يتعارض مع صريح العقيدة الإسلامية.

ويتوقف حنفي عند مسألة خلق الأرض في القرآن، فيرى أنّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام كما ورد في النص القرآني له دلالة وهي "التدرج في الفعل، وإيحاء بأهمية المراحل دون القفز فوقها. فكل شيء - كما يقول - يحتاج إلى زمان لأنّ الخلق في زمان"[42]. وهنا نلاحظ كيف أنّ حنفي يحاول إقحام العقل في الغيبيات، فيعطي تفسيراً عقلياً لأفعال الله، مع أنّ أفعال الله وحكمته قد تتجاوز التفسير العقلي، فقد تكون هناك حكمة أخرى من عملية الخلق هذه لا يستطيع العقل الاهتداء إليها، فليس هناك أي مبرر منطقي يرجح مثل هذا التفسير بدليل أنّ السؤال يبقى قائماً، وهو لماذا ستة أيام تحديداً؟ فقد كان بالإمكان أن يخلق الله الأرض والسماوات في يوم واحد أو في عشرة أيام أو غير ذلك، والله "لا يسأل عما يفعل وهم يسألون"(الآية)، وهو ما يؤكد دائماً كيف أنّ الباعث الإيديولوجي يشكل الخلفية الأساسية لهذا التفسير، فقد أراد حنفي من خلال هذا التفسير أن يبعث برسالة إلى الفرد المسلم ألا وهي ضرورة مراعاة المرحلية والتدرج في العمل وعدم القفز على المراحل قياساً على الفعل الإلهي، مع أنّ المقايسة لا تجوز أحياناً بين المخلوق والخالق، بين الغائب والشاهد.

ويحاول حنفي أن يبعث برسالة إيديولوجية إلى المسلمين، وهي عدم التشاؤم وعدم الخوف على مستقبل السماء والأرض جراء التهديد العسكري النووي، فهما بيد أمينة، يد الله عز وجل، وهو ما دلت عليه الآيات الكريمة (إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا)، (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)[43]. فهنا نلاحظ كيف أنّ حنفي يعتمد على الشعور وعلى الخبرة الشعورية الحيّة في فهم النص، بحيث يحاول الاستثمار في هذه الخبرة من أجل استنطاق النص وفهمه، دون أن نجد أي مناسبة بين هذا الفهم والبنية اللغوية للنص. فكأنّ هذا النص بحسب تفسير حنفي قد نزل اليوم ليبدد مخاوف الناس وهواجسهم في ظل المعطيات الموجودة في الواقع والمتمثلة في انتشار الأسلحة الفتاكة وما تسببه من مخاوف ومخاطر على البيئة وعلى الإنسان.

ويذهب حنفي إلى أنّ خلق الأرض قد تمّ بالحق، وهذا معنى قوله تعالى (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق)، ويستثمر حنفي في الفكر الصوفي الذي يشكل مثلما أشرنا سابقاً أحد روافد منهج التفسير عند حنفي، فالصوفية يوحدون بين الحق والخلق، ومن هنا يرى أنّ الأرض حق، ويحاول حنفي الاستثمار في

---

[42]- نفسه، ص 85

[43]- المصدر نفسه، ص 86

هذا المعنى وذلك بإعطائه مضموناً وبعداً سياسياً وإيديولوجياً، فيقول: "فالأرض حق تخرج عن دائرة الباطل (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما باطلاً). السكن فيها بالحق وليس بالعدوان، لذلك ينزل عليها الوحي، إحقاقاً للحق واعترافاً به (تنزيلاً ممن خلق الأرض). الوحي تكملة للخلق (قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض). الأرض مهبط الوحي وليس الزيف والبطلان والدعاوى الكاذبة والأساطير العنصرية العرقية بأحقية شعب معين بالسكن فيها والاستيطان عليها..."[44]، هكذا يتضح من هنا كيف أنّ حنفي يوظف الخبرة الشعورية الحية في فهم القرآن وتفسيره، فمعاناة المسلم جراء اغتصاب أرض فلسطين وشعوره بالظلم إزاء هذا العدوان الصهيوني الظالم هي التي تؤسس لمثل هذا الفهم، بحيث يمكن القول إنّ "لاهوت الأرض" عند حنفي وإن استند إلى مرجعية النص إنما هو عبارة عن إيديولوجيا دفاعية ونضالية ضد عقيدة أرض الميعاد عند اليهود، وهو ما يؤكد مرة أخرى البعد السياسي والإيديولوجي لمنهج اليسار الإسلامي في التفسير.

وفي سياق آخر، يرى حنفي أنّ الأرض لم تخلق "للاستيطان فقط بل للتأمل والتفكر في المصير"، وهو معنى قوله تعالى (إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)، وقوله أيضاً (أولم يسيروا في الأرض فينظروا)[45]. ويؤكد حنفي أنّ الأرض، شأنها شأن السماء، تسبح لله مصداقاً لقوله تعالى (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن)، ومعنى تسبيح الأرض إعمارها واخضرارها ونماؤها ولا يكون التسبيح بتدميرها وتجريفها، فالأرض ينبغي أن تكون إذن مسرحاً للإعمار والإصلاح، وليست مسرحاً للفساد والقتل والذبح والتدمير للنسل والزرع، للأطفال والنساء والشباب والشيوخ[46].

وبمناسبة تفسير لفظ السجود في قوله تعالى (ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض)، وقوله عز وجل (ألم تر أنّ الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض)، يرى حنفي أنّ الله وحده الجدير بالعبادة في الأرض، وأنّ العبادة تحتاج إلى الصبر والاصطبار، وهو ما دل عليه قوله تعالى (رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته)، ويستغل حنفي هذا المعنى للاستثمار فيه إيديولوجياً، فيرى أنّ العبادة في الأرض تكون لله وحده لا لغيره من الأوثان، فالله، كما يقول، "خلق الأرض لصالح الإنسان ليسكن فيها ويعمرها، وليست لعبادة القوة والطاغوت والثروة والسلطة والعبادة المزيفة. فهناك فرق بين الزائل والدائم"[47].

---

[44]- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 86

[45]- نفسه، ص 86

[46]- نفسه، ص 87

[47]- نفسه، ص 87

ومن جهة أخرى، يرى حنفي أنّ الأرض ليست ثابتة بسبب فعل الإنسان الذي يظن أنه قائم فيها أبداً، فقد تخسف الأرض بسبب المفاسد وقد تخسف أيضاً بالماكرين والظالمين والعتاة والطغاة، وهو ما نص عليه قوله عز وجل (فخسفنا به وبداره الأرض)، وقوله (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض)، وقوله أيضاً (أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض)، ويبدو حنفي وفياً وملتزماً بمنهجه في الفهم والتفسير الذي يربط النص بالواقع وهو ما يتجلى بمناسبة تفسير قوله تعالى (أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها) فالمقصود بهذه الآية، كما يقول، أنّ الله قادر على أن ينقص الأرض من أطرافها مهما توسع الكيان الاستيطاني عرضاً، وهذا حق يصدقه الواقع ويشهد عليه، فالاستعمار الأوروبي الذي انتشر فوق أطراف الأرض قد بدأت أطرافه تتقلص حتى عاد إلى حدوده الطبيعية في الدول الأوروبية التي خرج منها وهذا بفعل حركات التحرر الوطني، وهذا ينطبق على الاحتلال الصهيوني أيضاً في نظره، فبعد التوسع الاستيطاني الذي تحقق له في الضفة الغربية والجولان، استطاعت المقاومة اللبنانية دحره في طرفه الشمالي، وحرب أكتوبر قلصته في طرفه الجنوبي.

ويحاول حنفي الاستثمار في بعض الآيات القرآنية ليبعث برسائل إلى الظالمين والطغاة، فيبين لهم أنّ الأرض ليست دائمة والاستيلاء عليها مؤقت، فكما خلقها الله تعود إليه، وكما سكنها قوم ظلماً وعدواناً فإنهم يخرجون منها من جديد يوم القيامة بعد أن يمتحن الإنسان عليها ويختبره فيها، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى (إذا زلزلت الأرض زلزالها) وقوله أيضاً (يوم ترجف الأرض والجبال)، فعلى الإنسان إذن ألا يطغى في هذه الأرض وألا يغتصب أرض الآخرين، لأنّ هذه الأرض ما هي إلا محطة عبور إلى الدار الآخرة، حيث تجزى كل نفس بما كسبت، ولهذا جاء في وصايا بعض الصوفية: "يا ابن آدم اجعل الدنيا قنطرة تعبر عليها ولا تعمرها"، وقال بعض الحكماء: "الدنيا مزرعة الآخرة".

وفي تفسير حسن حنفي، فإنّ ملك الأرض وميراثها لله وحده، وهو ما نصت عليه العديد من الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى (ولله ملك السماوات والأرض)، وقوله عز وجل (له ما في السماوات والأرض)، إلى غير ذلك من الآيات، ويحاول حنفي أن يربط بين النص والواقع في تفسيره لهذه الآيات، فيبين أنّ الكثير من الطغاة والمتكبرين والجبابرة وعلى رأسهم الصهاينة قد أخطؤوا واعتدوا على حق الله وخالفوا النص الصريح، وذلك بمحاولتهم الاستيلاء على الأرض ومحاولة امتلاكها بل وتوريثها لغيرهم، يقول في سياق تفسير هذه الآيات: "لله ملك الأرض ومن عليها. وله خزائنها (ولله خزائن السماوات والأرض). ما فوق الأرض وما تحت الثرى، العمران والنفط، البنايات والهياكل على الأرض والمعادن الطبيعية تحتها وهو ما سماه الفقهاء الركاز. ولا أحد يملك ذرة في السماء أو في الأرض كما تدعي النظريات العنصرية والقومية العرقية، (لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض). بل إنّ بعض الدول أرادت امتلاك المحيطات والكواكب والنجوم والقمر

وكل ما في الفضاء. فالملكية على هذا النحو مظهر من مظاهر القوة والعدوان. وتتضمن ملكية الله للسماوات والأرض ملكية مقاليد الأمور فيها، والسيطرة على قواها (له مقاليد السماوات والأرض). فهي ملكية عالمة وليست ملكية جاهلة تنتهي إلى التلوث والتصحر"[48].

ومن هنا نلاحظ كيف أنّ حنفي يسعى إلى تحيين النص وتحيين الخطاب الإلهي من خلال فهم النص في ضوء الواقع المعاصر، وكأنّ القرآن نزل في هذا العصر استجابة لمقتضيات هذا العصر وأسئلته وأحداثه، وهذا ما يتجلى بالخصوص في رده على الصهاينة مغتصبي الأرض وعلى عقيدة الوعد، فهذه الآيات القرآنية تشكل بالنسبة لحنفي مادة أساسية للاهوت الأرض، أي لجعل الأرض جزءاً من عقيدتنا الإسلامية مثلما هو الحال في اللاهوت اليهودي، يقول في هذا الصدد: "والأرض لها وارث هو الله (لله ميراث السماوات والأرض). لا يجوز لأحد سواه ادعاء وراثتها أباً عن جد، وابناً عن أب، وحفيداً عن ابن. فالميراث نتيجة طبيعية للملكية، وليس إعطاء من لا يملك لمن لا يستحق كما فعل وعد بلفور لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين. والله يورث الأرض لعباده الصالحين وليس للعصاة قتلة الأنبياء والشعوب (وتلك الأرض يرثها عبادي الصالحون). وهو مدوّن في الزبور (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون). فالعهد القديم لا يعطي الأرض لشعب بلا شرط، مهما اعتدى وعصى وقتل الأبرياء. شرط الوراثة العمل الصالح الذي يفتح الأرض للجميع، تتوارثها الأجيال الصالحة جيلاً وراء جيل (أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها)، وليس عرقاً أو شعباً دون غيره، وليس الذين لعنهم الله في الدنيا والآخرة. فإذا عصى شعب مثل بني إسرائيل يرث الصالحون أرض العصاة (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها)..."[49]. يتضح من هنا كيف أنّ حنفي يحاول أن يشرك القارئ معه في هذا التفسير، فقضية فلسطين تهمّ كل مسلم، ويحاول استغلال الخبرة الشعورية الحية للقارئ حتى يتفاعل معه ومع النص القرآني فيحس القارئ هاهنا وكأن النص القرآني قد جاء ليجيب على تساؤلاته وليحل مشاكله الحقيقية، ومن هذه التساؤلات: هل حقاً أرض فلسطين هي لليهود كما يزعمون استناداً لكتابهم المقدس؟ وأكثر من هذا يحاول حنفي قلب معادلة الصراع العربي الإسرائيلي، فالعرب الذين كانوا دوماً في موقع الدفاع واليهود في موقع الهجوم باعتبارهم أصحاب حق كما يزعمون استناداً إلى عقيدة الوعد في التوراة، يريد حنفي أن يجعلهم في موقع الهجوم، فهم أصحاب الحق بشهادة النص القرآني، وهذا يستوجب على المسلمين الجهاد والنفير لاسترجاع حقهم المسلوب منهم وهو أرض فلسطين، ويمضي حنفي في الرد على عقائد الصهاينة ومزاعمهم بخصوص الأرض استناداً إلى تأويل النصوص ومحاولة استنطاقها وهو ما يتجلى بمناسبة تأويل قوله تعالى (إني أعلم غيب السماوات والأرض) فيعطي لهذا النص

[48]- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 89

[49]- المصدر نفسه، ص 90

قراءة سياسية إيديولوجية، حيث يقول: "والله وحده هو الذي يعلم غيب السماوات والأرض (إني أعلم غيب السماوات والأرض). ولا يخفى على علمه شيء. لا يأتي العلم من تزوير التاريخ وتحريف الوثائق كما تفعل إسرائيل في إثبات وجودها كأول شعب على أرض فلسطين، وإثبات إقامة المسجد الأقصى على أنقاض هيكل سليمان الذي يجب إعادة بنائه كما كان فوق أنقاض المسجد الأقصى. وهو الذي يعلم السر والعلن (يعلم سركم وجهركم). ولا يخفى التآمر والكذب من أي فرد أو شعب عليه. يعلم ما تحت الأرض وما فوقها (ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين). وهو أعلم بالحفريات تحت المسجد الأقصى وليس مؤرخي الزيف والبهتان"[50]. بهذا يتحول النص القرآني مع حنفي إلى خطاب لتبرير إيديولوجيا محددة ضد إيديولوجيا مضادة، ومن خلال هذه القراءة يحاول حنفي أن يحشد الدعم لقضية فلسطين، قضية المسلمين الأولى، فهو يأخذ بعين الاعتبار الخبرة الشعورية وعواطف الناس وانفعالاتهم في تفسيره للقرآن.

ويحاول حنفي أن يجد في النص القرآني ما يبرر إيديولوجية اليسار الإسلامي المتمثلة في الدفاع عن المستضعفين والمقهورين، وإعطائهم جرعة من الأمل وحشد همتهم من أجل الوقوف في وجه قوى الطغيان والاستبداد، وهو ما نلمسه في سياق تفسير قوله تعالى: (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء) وغيرها من الآيات التي تصب في السياق نفسه، فيقول في هذا الصدد: "ولا يستطيع أحد أن يعجز الله في الأرض، فالله قادر على إهلاك من يعتبرهم البشر آلهة (إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه في الأرض). فكل إنسان على الأرض عبد لله (إن كل من في السماوات والأرض إلا أتى الرحمن عبداً). ولا يستطيع شعب مهما أوتي من جبروت وأسلحة دمار أن يعجز الله (وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء). لا يستقوي أحد نفسه عليه (وما كان ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض)...والله هو الذي يدبر الأمر في السماوات والأرض وليس القوى الكبرى (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض)... والجنود لله في السماوات والأرض (ولله جنود السماوات والأرض). وليس جيش الرب في أوغندا أو جيش الدفاع الإسرائيلي في فلسطين المحتلة"[51]. بهذه الكلمات يريد "حنفي" أن يبعث في نفوس المستضعفين جرعة أمل فيدعوهم إلى عدم الاستسلام أمام قوى العدوان المدججة بأحدث الأسلحة، فهذه القوة لا تشكل شيئاً أمام قوة الله وجبروته، فالله يقف بجانب المستضعفين لأنه تعالى لا يحب الظلم والعدوان، ولكن بشرط أن يؤدي هؤلاء واجباتهم الدينية والتي هي حقوق الله عليهم، وهو ما عبر عنه حنفي بقوله: "وما دام الله هو مالك الأرض ووارثها فله على الناس حق الطاعة (ولله يسجد من في السماوات والأرض). وليس العصيان، وقتل الأنبياء، وتشريد الشعوب خارج أوطانها واحتلال أراضيهم. له على الناس حق الإسلام له ليتحرروا من عبودية الأسياد من البشر (وله أسلم من في

[50]- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 90

[51]- المصدر نفسه، ص 91

السماوات ومن في الأرض)"[52]. بهذا التفسير نلحظ، مرة أخرى، كيف أنّ حنفي ينطلق من الواقع في فهم النص، فالنص هو نداء للواقع وإجابة على متطلباته ومقتضياته، ومن هذه المتطلبات التي تشكل أولوية بالنسبة للمسلمين قضية احتلال فلسطين، ولهذا نجد حنفي يستغل كل آية تتعلق بالأرض ليفسرها ويفهمها بما يخدم قضية فلسطين، وهو عمل يكتسي في المقام الأول طابعاً إيديولوجيا أكثر منه علمياً أو شرعياً، إذ لا توجد في كثير من الأحيان أيّة قرينة لغوية بين النص القرآني والواقعة المذكورة (احتلال فلسطين)، وهو أمر يخالف القواعد المتعارف عليها عند علماء التفسير، فالتفسير كما يقول العلماء هو فهم النص بما يدل عليه ظاهره وذلك يسمى عندهم تفسيراً، أو صرف اللفظ من معناه الظاهر إلى معنى آخر يحتمله، وهذا ما يعرف بالتأويل، كتفسير الاستواء في قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) بمعنى الاستيلاء وهذا التفسير هو من المعاني المتداولة في اللسان العربي، كما قال الشاعر العربي: قد استوى بشر على العراق من غير سيف أو دم مهراق.

ومن هنا نستطيع القول إنّ "حنفي" في فهمه للقرآن لم يلتزم بقواعد التفسير والتأويل المتعارف عليها لدى علماء السلف، إذ لم يفهم النص حسب معناه الظاهر، كما أنه لم يحمل النص على المعاني التي يحتملها، فغلب على تفسيراته الطابع الإيديولوجي. فأهمية هذا التفسير، في نظرنا، تتجلى على المستوى الإيديولوجي بالأساس، لأنه يعبر عن فلسفة اجتماعية وفلسفة فعل ومقاومة، ولا شك أنّ الأمّة الإسلامية في أمس الحاجة اليوم إلى مثل هذه الفلسفة، نظراً لما ابتليت به من احتلال إسرائيلي لأرضها، ومن اعتداءات القوى الغربية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية على بلادها (العراق وأفغانستان وباكستان وليبيا وغيرها)، فضلاً عن بلية الفكر الديني السلفي المتحجر، المنغلق على النص، وعلى التراث، أو الفكر الديني المستقيل الذي يستسلم للواقع ولا يبالي بتغييره، فيجعل طلب الآخرة والاهتمام بالغيب بؤرة اهتمامه، ويسلم أمره لله، بحجة أنّ (الأمر كله لله)، وأنّ غاية الدين تحقيق السعادة الأخروية (الفردوس السماوي لا الفردوس الأرضي)، فاليسار الإسلامي يرى أنّ مصيبة المسلمين اليوم هي في هذا النمط من الخطاب الديني الذي يتنكب الواقع بانغلاقه على النص وعلى التراث.

خلاصة وتقييم:

تتميز الكثير من التفسيرات الإسلامية للقرآن بطابعها المثالي التجريدي، من حيث أنّ اهتمامها ينصب على الغيبيات والأخرويات (السمعيات) كالبعث وعذاب القبر وأخبار الجنة والنار وغيرها، ومن هنا كان الخطاب الديني في هذه التفسيرات خطاباً وعظياً انفعالياً يركز على الأخلاق، الأخلاق المثالية التي تنشد الكمال

[52]- نفسه، ص 91

المطلق للظفر بنعيم الجنة (الفردوس السماوي)، وهو خطاب يغرق في وصف أحوال الجنة والنار وفي ذكر التفاصيل والجزئيات حتى أنه يجتهد في وصف ما لم يصفه القرآن سوى بالقول (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت)، في هذا الخطاب يتم التركيز على العبادات والشعائر الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج، وكأنها وحدها الكفيلة بضمان الجنة، فتغيب أمور الدنيا والحياة ويهمش الواقع مع أنّ "الدنيا مزرعة الآخرة" كما جاء في الأثر، ومع أنّ العبادة لا تقتصر على ممارسة الشعائر والطقوس الدينية، والأخلاق لا تختزل في مجموعة من السلوكيات أو الفضائل المثالية، ومع أنّ القرآن أمر المسلمين بإعداد القوة لإرهاب العدو، الذي هو عدو الله، إلا أنّ هذه التفسيرات تستبعد مثل هذه الآيات من مجال تفسيرها لينصب اهتمامها على العبادات والغيبيات وغيرها من المواضيع التي تم اختزال الدين فيها.

إنّ "الدين المعاملة"، وبالتالي، فكل عمل يراد به الخير والإصلاح وعمران الأرض لا إفسادها يدخل في باب الأخلاق والعبادة (الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ) ـ الحديث ـ فتنظيف الطريق وإزالة ما من شأنه أن يؤذي الناس يدخل في باب الإيمان، و"الابتسامة في وجه أخيك صدقة" ـ الحديث، و"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" ـ الحديث، والمشي في الأرض باختيال وفخر يتعارض مع مقتضيات الإيمان (ولا تمشِ في الأرض مرحاً إنّ الله لا يحب كلّ مختال فخور) ـ الآية، والإيثار فضيلة بينما الأنانية والأثرة رذيلة "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" ـ الحديث، والغش في العمل يخرج المرء من الجماعة الإسلامية "من غشنا فليس منا" ـ الحديث، والرياء يخرج السلوك عن العبادة ولو كانت صلاة أو زكاة أو حجاً، والقول ما لم يصدقه العمل أمر ممقوت عند الله ولو كان في ظاهره صواباً، "كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" ـ الآية، تلك هي فلسفة اليسار الإسلامي في التفسير، وذلك ما عابه "حنفي" على التفسيرات التقليدية كونها همشت الحياة الدنيا، وعزلت الدين عن الواقع، وتجاهلت البعد الاجتماعي والثوري للإيمان والعقيدة، وجعلت الفردوس السماوي مبتغاها وأهملت الفردوس الأرضي، فحوّلت الدين إلى طقوس بلا روح، ومن ثمة، فإنّ مثل هذا الخطاب الديني يتحمل مسؤولية كبيرة فيما أصاب المسلمين من تخلف وانحطاط، فالزهد في الدنيا بحجة أنها مطية النار والتركيز على الجواني دون البراني، وعلى المثال دون الواقع، وعلى الفكر دون العمل، هو ما كرسته العديد من التفسيرات السابقة، مثلما يتجلى أيضاً في الكثير من الخطابات الدينية السائدة اليوم، كل هذا جعل المسلمين يعيشون عالة على غيرهم من الدول، فهم يستوردون ليس فقط الكماليات بل حتى الضروريات، هم أغنى أغنياء العالم ولكنهم أفقر فقرائه.

من جهة أخرى، وانطلاقاً من هذا الواقع، وضع "حنفي" نظريته في التفسير، التي تعطي الأولوية للبعد الاجتماعي للعقيدة والإيمان على حساب البعد الروحي والأخلاقي، وللعمل على حساب النظر، وتربط النص

بالواقع، حيث تذهب من الواقع إلى النص وليس العكس، كما تعطي الأولوية لمفاهيم العمل والمنفعة والمصلحة وتجعلها كلمات مفتاحية في فهم النص، فلا شيء من هذه المفاهيم يتعارض مع الإيمان، بل هي جوهر الإيمان ومفتاح العبادة والأخلاق، تلك فلسفة اليسار الإسلامي التي تمثل حسب حنفي بديلاً للإيديولوجيات السائدة في العالم الإسلامي، وأهمها الإيديولوجيا السلفية والإيديولوجيات الحداثية التغريبية، وهما الإيديولوجيتان اللتان تسيطران وتسودان اليوم، فنحن ـ المسلمين ـ "مازلنا نستمد رؤانا للعالم من القدماء الذين عاشوا في عصر مضى وفي مرحلة تاريخية ولت، ونحن نعيش في عصر آخر وعى مرحلة تاريخية جديدة، من الانتصار إلى الانكسار، ومن الوفرة إلى الندرة، أو ننقلها من المحدثين فلا تنجح خططنا التنموية إذ تنقصها المشاركة الشعبية والدافع الداخلي من الثقافة الوطنية"[53].

كلا الإيديولوجيتين على خطأ، وبعيدة عن روح القرآن ورؤيته للعالم، حسب حنفي، ومن هنا كان اليسار الإسلامي، يمثل إيديولوجية بديلة، هو إيديولوجيا ولكنها تستند إلى رؤية قرآنية وهو ما نلمسه في تفسير "حنفي"، حيث يتم التركيز على مفاهيم الأرض الخضراء وإصلاح الأرض، والفساد في الأرض، والاستقرار في الأرض، والاستخلاف في الأرض، وغيرها من المفاهيم التي تكشف عن البعد العملي والواقعي والحضاري للدين الإسلامي، وهو ما نلمسه في قول حنفي: "إنّ تصوير القرآن للأرض الخضراء التي ينزل عليها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج هو إيحاء للعرب بالتوجه نحو الأرض لزراعتها وريها. فصورة الأرض الخضراء في الذهن الإلهي هي صورتها أيضاً في الذهن الإنساني. فالقرآن موجه للسلوك الإنساني وواقع على العمل في الأرض وبناء العمران. القرآن به كل شيء (وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)، (ما فرطنا في الكتاب من شيء). ليس بمعنى الحلول، ولكن بمعنى به كل التوجه والإرشاد والرؤية والمنظور". هكذا يستثمر حنفي في النص القرآني استثماراً إيديولوجياً، فلفظ الأرض في القرآن لم يأت صدفة وإنما جاء تعبيراً عن حاجة الإنسان وبناء على نداء الواقع، فكأنّ احتلال أرض فلسطين، وضرورة استغلال الأرض لسد حاجتنا من الإنتاج الزراعي بعد ما أصابنا من التخلف الاقتصادي، كأنّ هذه العوامل تمثل أسباباً للتنزيل في تفسير اليسار الإسلامي، وكأن القرآن نزل في هذا العصر، وهذا هو معنى القول إنّ "القرآن صالح لكل زمان ومكان"، ولعل هذا ما عبّر عنه "محمد إقبال" حين أشار إلى وصية أبيه: "يا بني اقرأ القرآن كأنه أنزل عليك"، هكذا يفهم "حنفي" النص القرآني على أنه "وحي صاعد من الأرض، وليس وحياً نازلاً من السماء"، ومن هنا يستغل مفهوم الأرض في القرآن ليوجه دعوته إلى أبناء الأمّة الإسلامية من أجل خدمة الأرض واستثمارها، فإن فعلوا ذلك استطاعوا نيل ثواب الدارين، ثواب الدنيا وهو ضمان رزقهم وحاجتهم من الغذاء التي تعد الأرض

[53]ـ حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 104

مصدره، وثواب الآخرة، باعتبار أنّ هذا العمل يُعدّ عبادة من حيث أنه ينسجم مع إرادة الله وأمره، فمن قصّر في هذا العمل يكون قد قصّر في عبادة الله. يقول حنفي موضحاً صورة الأرض في القرآن: "الأرض للإنبات وليست الأرض القاحلة الجافة. يهرع إليها الناس (فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها). الأرض تنبت بفعل إنزال الماء عليها كما يفعل المطر درساً للإنسان لحفر الآبار وإقامة السدود والبحث عن مصادر المياه (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض) يختلط الماء بنبات الأرض فيتحول إلى عشب وأشجار (كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض). فندرة المياه أسطورة تبرر اندلاع الحرب القادمة في فلسطين حول المياه التي سلبها المستوطنون لري حدائقهم، وفي الوقت نفسه تسميم آبار الفلسطينيين حتى يموتوا جوعاً وعطشاً فيهجرون الأرض طوعاً أو كراهية"[54]. هكذا، يجد حنفي في تفسير لفظ الأرض في القرآن مناسبة لتوجيه أبناء أمته نحو الاهتمام بالزراعة بعد التقصير الذي لاحظه منهم في هذا الجانب، فبالرغم من أنّ الله أنعم عليهم بنعمة الأرض الخصبة والغنية بثرواتها إلا أنهم فرطوا في هذه الأرض ولم يستغلوها على نحو ما أراده الله، فأصابهم الجوع والعطش، لذلك يقوم اليسار الإسلامي ـ كما يقول حنفي ـ "على تجربة أخرى، التوجه نحو الأرض ليس فقط للتحرير والعمران بل أيضاً للزراعة حتى نأكل ما ننتجه، ونحصد ما نزرعه لتحرير الإرادة الوطنية من المعونات الخارجية والتهديد بقطعها ومنع توريد القمح والغذاء. فالهند شبه القارة التي يقطنها فوق المليار نسمة تأكل ما تنتج، ولا تستورد قمحاً، ونحن ما يقرب من المليار والنصف من المسلمين يعم أراضينا القحط والجفاف من جانب، والغرق والفيضان في جانب آخر"[55]. بهذا المعنى يبدو تقصير المسلمين في العبادة مهما امتلأت بيوت الله بالمصلين، ومهما استوعب بيت الله الحرام من حجيج يأتون من كل فج عميق.

ولاشك أنّ الخطاب الديني له مسؤولية كبيرة في هذا التقصير، لأنه لم يفهم النص وفق مقتضيات الواقع، فانغلق على النص وكان خطابه مثالياً وعظياً وانفعالياً، دفع بالناس إلى التواكل وإلى التسليم بالجبر رغم أنّ كتابهم المقدس يحمل نواة برنامج عمل وبذور مشروع حضاري متكامل، وهو ما نبّه إليه تفسير اليسار الإسلامي، إنه محاولة لإشراك القارئ في هذا التفسير فيشعر معه كأنّ القرآن قد نزل عليه، لتلبية حاجاته، فالوحي تلبية لنداء الواقع لأنّ الله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، وهو يريد للإنسان الذي استخلفه في هذه الأرض الخير والصلاح والمنفعة. فهذا الشعور هو الذي يجعل الإنسان يتفاعل مع الوحي ويقبل عليه إذ يشعر بأنّ الله قريب منه ويسمع نداءه ويفكر بالنيابة عنه ابتغاء منفعته.

[54]ـ حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مصدر سابق، ص 104

[55]ـ نفسه، ص 104

وإذا كان هناك من يثني على هذا المنهج ويعتبره عملاً تجديدياً في علم التفسير، فإنّ هناك من ينتقد هذا الاتجاه ويعتبره من البدع المستحدثة في الدين، وأنه أثر من آثار الوافد الفكري على ثقافتنا، إذ غالباً ما يردّ هذا المنهج إلى المنهج الفينومينولوجي (الظاهراتي) وإلى الفلسفة الماركسية وإلى اليسار الهيجلي، وإلى الفلسفة التأويلية (الهيرمينيوطيقا)، وكلها فلسفات غربية لا يمكن أن تنسجم مع ثقافتنا وتراثنا، فكيف يمكن لها أن تساعد في فهم النص القرآني، وفك شفرة الواقع العربي الإسلامي بخصوصياته التي تميزه عن الواقع الذي ظهرت فيه هذه الفلسفات؟ وزيادة على هذا، فإنّ منهج اليسار الإسلامي في التفسير، كما جاء في متن هذا البحث، لا يلتزم بقواعد التفسير وضوابطه التي وضعها علماء السلف بعد دراسة معمقة للعلوم الشرعية والعقلية وخصوصاً علوم اللغة.

ولعل من أبرز الانتقادات التي وجهت إلى اليسار الإسلامي تتمثل في اتهامه بتحويل الدين إلى إيديولوجيا، واختزال الدين في أبعاده الاجتماعية، ونزع القداسة عن الدين، من خلال التأكيد على البعد الإنساني للدين، على نحو ما جاء في نقد عبد الجبار الرفاعي لحسن حنفي الذي نقتطف منه قوله: "لاهوت التحرير عند حنفي وشريعتي يختزل الدين في أيديولوجيا المقاومة والثورة، ويطمس الوظيفة المحورية للدين. الدين أرحب وأشمل وأوسع من الإيديولوجيا. الإيديولوجيا مظهر وتعبير اجتماعي للدين، تحويل الدين إلى أيديولوجيا يعني: اختزال الإنسان في بعد واحد، والروح في القانون، والعقيدة في الثورة، والله في الإنسان، والإلهي في البشري، والسماء في الأرض، والغيب في الشهادة، والميتافيزيقا في الطبيعة" الفيزيقا"، والآخرة في الدنيا، والروح في الجسد، والرمزي في الحرفي، والرؤيوي في المحسوس، والمعاد في المعاش، والعبادات والطقوس في المداليل الاجتماعية والتنمية والإنتاج، والديني في الدنيوي. وحين يتحول الديني إلى دنيوي في لاهوت التحرير تختلط الحدود بينهما، فيجري تديين الدنيوي، وتعميم الفهم الديني لكافة حقول المعارف البشرية، وتديين المعرفة في خاتمة المطاف يفضي إلى التضحية بالعقل والخبرة البشرية المستقلة عمّا هو ديني"[56].

والسؤال الذي يمكن أن يطرح في ضوء هذه الانتقادات والسجالات الفكرية، إلى أي مدى يمكن أن تكون هذه الحجج كافية لدحض فلسفة اليسار الإسلامي ومنهجه في التفسير؟ أم أنها تدخل في خانة لاهوت السيطرة أو اللاهوت التقليدي والرسمي الذي يريد الحفاظ على الأوضاع كما هي وتبريرها تبريراً دينياً؟

إنّ ما يمكن قوله ونحن بصدد السؤال عن مدى مشروعية اليسار الإسلامي ونظريته في التفسير، هو أنه وبغض النظر عن الإجابة عن هذا السؤال التي يمكن أن ترجح موقف هذا الطرف أو ذاك من طرفي

[56]- عبد الجبار الرفاعي، اختزال الدين في الإيديولوجيا. لاهوت التحرير عند علي شريعتي وحسن حنفي، مقال ألقاه صاحبه بحضور المعني بالأمر (حسن حنفي) بمقر الجمعية الفلسفية المصرية بالقاهرة، مساء الأحد 16 يناير 2011. وقد زودنا صاحبة - مشكوراً - بنسخة منه.

الحوار، أنصار اليسار الإسلامي أو خصومه، فإنّ الدرس المستفاد منه هو درس إبستمولوجي بالأساس، ويتعلق الأمر بإبراز أهمية الهرمينوطيقا في الكشف عمّا ينطوي عليه النص القرآني من فتوحات وإمكانات معرفية، بحيث يمكن أن تستخرج منه العديد من النظريات والأفكار الجديدة، فالقرآن فضاء مفتوح للإبداع إذا ما أحسنا قراءته وإعادة قراءته، فليس المهم أن نقبل هذه النظريات أو أن نعارضها، بل المهم ألا نقرأ القرآن بعيون الموتى، على حد تعبير روجيه غارودي[57]، لأنّ القرآن صالح لكل زمان ومكان، ولكل زمان مشكلاته وقضاياه، كما لكل زمان علماؤه ومجتهدوه، ولكل منهم أدواته وإمكاناته في الفهم والقراءة التي لم تتح لغيره في قراءة النص القرآني وتأويله، وتعدد القراءات واختلافها لا يضير القرآن ولا ينقص من قيمته، في نظرنا، بقدر ما يمثل وجهاً من وجوه إعجازه، تلك هي فضيلة الهرمينوطيقا، والدرس الذي يمكن الاستفادة منه والاستثمار فيه من أجل تجديد علاقتنا بالنص القرآني واستعادة فاعليته في تحقيق الانبعاث الحضاري على نحو ما تحقق لأسلافنا.

[57]- رجاء غارودي، البديل هو الإسلام، محاضرة ألقيت في مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987، ص 131

مسرد المراجع:

- لاهوت التحرير، ومفهومه ونشأته واتجاهاته ومقولاته وفلسفته، ينظر دراستنا: لاهوت التحرير في الفكر العربي المعاصر (حسن حنفي أنموذجاً)، مجلة دراسات فلسفية، تصدر عن الجمعية الجزائرية للدراسات الفلسفية، العدد 01

- حسن حنفي، هموم الفكر والوطن، ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998

- حسن حنفي، حصار الزمن، الحاضر مفكرون، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1، 2004

- حسن حنفي، قضايا معاصرة في فكرنا المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ط3، 1987

- حنفي، التراث والتجديد، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1987

- أحميدة النيفر، الإنسان والقرآن وجهاً لوجه (التفاسير القرآنية المعاصرة) قراءة في المنهج، دار الفكر، دمشق، ط1، 2000

- حنفي، الوحي والواقع، تحليل المضمون، مركز الناقد الثقافي، دمشق، ط1، 2010

- حسن حنفي، جمال الدين الأفغاني، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ط، 1998

- حنفي، من النص إلى الواقع، الجزء الثاني (بنية النص)، ط2، 2005، مركز الكتاب للنشر، القاهرة.

- حسن حنفي، ظاهريات التأويل، محاولة في تفسير وجودي للعهد الجديد، ج2، مكتبة النافذة، ط1، 2006

- محمد جمعة، مشروع حسن حنفي للتراث عين على الأصالة وأخرى على المعاصرة، ضمن أحمد عبد الحليم عطية، جدل الأنا والآخر، قراءات نقدية في فكر حسن حنفي، مكتبة مدبولي الصغير، القاهرة، ط1، 1998

- رجاء غارودي، البديل هو الإسلام، محاضرة ألقيت في مؤتمر القمة الإسلامي الخامس، حول: الإسلام والمستقبل، الكويت، 1987

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com